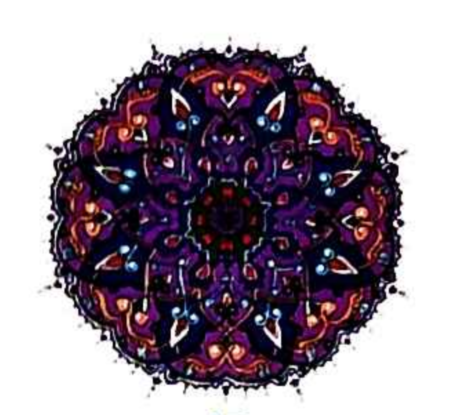


حنان لحام

تأملات في سورة هود

مكتبة الإمام الشافعي

دار الحنان

تأملات

في سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

حنان لحام

تأملات في سورة هود

دار الحنان

مكتبة الامام الشافعي

تأملات في سورة هود

تأليف : حنان لحام

الطبعة : الأولى ١٤٢٠ - ١٩٩٩

العدد : ٢٠٠٠

توزيع دار الحنان - دمشق هاتف : ٢٢٣٢٣٦٦

الإهداء

إلى أستاذي الذي علمني كيف أفكر .
وعلمني كيف أتحرر وأصل إلى حقوقي
بأداء واجباتي . .
إلى الأستاذ المجدد لهذه الأمة في هذا العصر .
جودت سعيد محمد .

حنان لحام
٢٧ / آذار / ١٩٩٩م
/ ١٠/ ذو الحجة/ ١٤١٩هـ

تقديم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد فقد توقفت عن الكتابة في التفسير منذ أن أنهيت سورة الأحزاب ـ أي منذ خمس سنوات ـ وإن لم أتوقف عن دراسة القرآن .

توقفت لأنني كنت أتوق إلى كتابة أفضل بعيدة عما كررته التفاسير السابقة . . أريد أفكاراً حيوية تستنبط من آيات الله لتكون مشروع نهضة للأمة ينطلق من واقعها المؤلم وعينه على ما حصل من إضافات في هذا القرن العشرين .

فلما قدمت تفسير سورة هود لبعض الأخوات في المسجد رأيتني أحس ببعض ماعاناه رسول الله ﷺ حين قال « شيبتني هود وأخواتها »[1] ورأيت نفسي أضعف أمام إلحاح بعض أخواتي في طلبهن لكتابة تفسيرها . . ولكن هل كشفت جديداً نافعاً . . ؟!

لا أدعي ذلك وإنما كبرت بعض الأفكار وازدادت نضجاً وتألقاً . . وسط عالم تتسارع فيه الأحداث والعواقب لتكشف للمراقب رسوخ الحق وهشاشة الباطل . .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]

وهكذا عدت إلى قلمي وكلي أمل في ترسيخ بعض ما ينفع الناس . .

---

(١) رواه الطبراني والترمذي .

أتطلع إلى توفيق الله وهدايته وأرجو من القراء أن يجتهدوا ويقدموا ما هو خير وأبقى . رب زدني علماً . . رب زدني قرباً . . رب زدني عملاً يرضيك بنفعه للأمة .

شوال ١٤١٩ ـ ٦ / ٢ / ١٩٩٩

* * *

مدخل إلى السورة

هي سورة مكية وآياتها مائة وثلاث وعشرون آية . وقد نزلت بعد سورة يونس التي نزلت بعد الإسراء . أي أنها نزلت في فترة حرجة شديدة لعلها كانت أشق الفترات في تاريخ الدعوة والداعي محمد ﷺ الذي فجع بوفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا. . وكانا له نعم المعين. . حتى أنه ﷺ يردد : ما نالت مني قريش حتى مات أبو طالب . وكانت أم المؤمنين خديجة الركن الذي يفزع إليه فيجد الحب و العطاء والعون بكل ما تملك. . حتى سمي ذاك العام (عام االحزن) وكان حادث الإسراء بعد ذلك استرواحاً للنبي وتسرية عنه ولكن أذى المشركين اشتد بعده. . وتوقف انتشار الدعوة فلم يدخل في الإسلام أحد في تلك الفترة. . حتى جاء وفد المدينة .

تأتي السورة في هذا الظرف لتثبّت النبيَّ ﷺ والذين معه وتسري عنه ما يساور قلبه من وحشة وغربة وضيق وسط ذلك المجتمع الجاهلي . ونلمس تشابهاً واضحاً بين السورتين : هود ويونس من حيث الموضوع. . أصول العقيدة. . ومن حيث اسلوب العرض إذ تنساب الآيات في السورتين في ثلاثة مجلات : افتتاح يتحدث عن الكتاب والعقائد والثاني حديث في التاريخ والثالث : تعقيب .

حتى أن الافتتاح والختام يتقاربان جداً في السورتين : حيث تفتتح يونس ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وهود ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وتختم يونس بدعوة الناس ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ .

وتختم هود بقوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ .

وجاء خلالهما أيضاً التحدي بالقرآن لكن في يونس كان أوسع بينما تأتي القصص في سورة هود مفصلة أكثر . فكأنه قد أجمل في كل منهما ما فصل في الأخرى . مع فوائد انفردت بها كل منهما . . فهما باتفاق الموضوع واختلاف النظم والأسلوب آيتان من آيات إعجاز ٱلله[(١)] لأن البراعة أن تتحدث في موضوع واحد عدة مرات وكل مرة تختلف عن سابقتها وفيها من الطلاوة والامتاع مالا يسمح للسامع أو القارىء بالملل .

حين نأتي إلى أقسام السورة نجد تنسيقاً جميلاً حيث يمثل القسم الثاني جسم السورة حيث تنطلق الآيات في استعراض تاريخي يوضح آيات ٱلله في الأنفس يشغل خمساً وسبعين آية[(٢)] ويسبق ذلك مقدمة تستهلك أربعاً وعشرين آية . ويأتي بعده تعقيب ثقيل الوقع يستهلك أيضاً أربعاً وعشرين آية . ويأتي بعده تعقيب ثقيل الوقع يستهلك أيضاً أربعاً وعشرين آية .

وتتفرد السورة بتفصيل في قصة نوح لا نجده في أي سورة أخرى وذلك في مشهد الطوفان وغرق ابن نوح وما يحيط به من حقائق وتوجيهات .

وكعادتي أحب أن أبدأ بفهرس لأقسام السورة يساعدنا على التهيء لجوها .

---

(١) هذه المقارنة مقتبسة من تفسير المنار للشيخ رشيد رضا رحمه ٱلله .

(٢) ينبهنا ذلك إلى أهمية التعليم بالقصة فهو يُبسِّط الفكرة ويجعل السامع يتفاعل معها أكثر وينشط الذهن لأن يستنتج الحقائق بجهده وهذا أفضل من أن يلقن الفكرة تلقيناً .

فهرس لمواضيع السورة

٤ـ لفته إلى مشركي قريش

٥ـ يؤمر بصناعة الفلك وقومه يسخرون منه

٦ـ التعبئة في الفلك والطوفان يغرق ابن نوح

٧ـ هدوء العاصفة ومناجاة نوح بشأن ابنه

٨ـ اهبط بسلام منا وبركات

٩ـ تعقيب : اصبر فالعاقبة للمتقين

٢ـ قصة هود :

١ـ دعوة هود : التوحيد ـ الاستغفار والتوبة

٢ـ ردهم على هود

٣ـ يتبرأ من شركهم ويتقبل أذاهم وينذرهم

٤ـ يتحقق الوعيد وينجو المؤمنون ـ بعداً لقوم هود

٣ـ قصة صالح :

١ـ دعوته وردهم عليه

٢ـ الناقة آية لهم

٣ـ عقروها فأنذرهم

٤ـ نجاة المؤمنين وأخذ الظالمين

٤ـ قصة إبراهيم :

١ـ الملائكة تبشر إبراهيم وزوجه

٢ـ يجادلهم في قوم لوط ولكن جاء أمر ربك

٥ـ قوم لوط :

١ـ يحاولون الاعتداء على ضيفه وهو يبذل جهده في ردهم

٢ـ الرسل تأمره بالخروج قبل وقوع العذاب

٣ـ وقوع العذاب والتلويح بذلك لكل الظالمين

٦ـ قصة شعيب :

١ـ دعوته لهم : عبادة ٱلله والعدل والوفاء في البيع

٢ـ استغرابهم : ما دخل الصلاة بالتقاليد والاقتصاد

٣ـ رده عليهم ـ هو أول من يلتزم

٤ـ يذكرهم بمصارع السابقين

٥ـ يهددونه فيتحداهم بانتظار العاقبة

٦ـ تحقق الوعد والوعيد

٧ـ قصة موسى :

١ـ إرسال موسى بالآيات والسلطان

٢ـ المستكبرون يسوقون عبيدهم إلى أوخم العواقب

٣ـ تعقيب وختام : (١٠٠ـ١٢٣)

١ـ تعقيب مباشر على قصص الأقوام

ظلموا أنفسهم ـ الشرك سبب الخسارة ـ كذلك أخذ ربك .

٢ـ في ذلك آية لمن يخاف الآخرة ـ مع وصف لها

٣ـ لا تشك في مصير كل مشرك . سيأخذ نصيبه

٤ـ جاء موسى بالكتاب فكذبوه وجزاؤهم في الآخرة

٥ـ توجيهات : فاستقم كما أمرت : لاتطغوا ولا تركنوا للظالمين

ـ أقم الصلاة ـ الحسنات يذهبن السيئات ـ واصبر

٦ـ عودة إلى القرون الأولى : لو كان منهم أولوا بقية ينهون عن الفساد ـ ٱلله لا يهلك القرى وأهلها مصلحون

٧ـ الاختلاف سنة في حياة الناس

٨ـ من رحم ٱلله احترم الاختلاف ولم يحوله إلى صراع

٩ـ تثبيت فؤاد النبي بهذه القصص

١٠ـ التحدي الأخير : اعملوا وانتظروا العواقب

١١ـ إليه المرجع فاعبده وتوكل عليه .

* * *

١ـ الكتاب وما يدعو إليه

١ـ الكتاب فيه المحكم والمفصل :

ـ ﴿الٓر﴾ ماذا تعني هذه الأحرف ؟

سبق أن تحدثت عن ذلك في كتبي السابقة . . ولهذا أوجز هنا : إن اكتشاف اللغة والكتابة تعتبر مرحلة عظيمة من حياة الانسان لم يصل إليها إلا بمعاناة كبيرة . . حيث تمكن من حبس المعاني والأفكار بالرموز . . ومازال يطور في الرموز ويزيد ذلك في تسهيل المعرفة وتسخير ما حوله في هذه الحياة . .

إن الله يقول لنا : إن هذه الأحرف رموز تفتح بها آيات ٱلله في القرآن وعلينا أن نكشف رموز آيات الآفاق والأنفس حتى تفتح لنا وتتسخر . . إن آيات ٱلله عامة ـ قوانينة المقروءة والمنظورة ـ لها مفاتيح ورموز للقراءة تتحدى ذكاءنا واجتهادنا كي ندخل إلى عالم المعرفة والتسخير .

ـ ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾

الإحكام في البناء : هو الاتقان والمتانة .

توحي الآية أن في الكتاب محكماً ومفصلاً .

فأما المحكم فهو ما نص بإيجاز وقوة على القواعد الأساسية في الدين . التي تمثل مقاصد الشريعة ـ مثل قوله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل : ٩٠] وقوله ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وأما المفصل فيمكن أن يقال ما توسع بعرضه القصص القرآني . . وما ذكر من أحكام فرعية لبعض المسائل[1] ، فالآية التي في أول سورة المائدة قد فصلت في أنواع (الميتة) التي حرمها الله في آية محكمة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ . . . ﴾ [المائدة : ٣] فالآية في أولها محكمة . . ثم يأتي التفصيل . . والله أعلم .

ويمكن أن نرى في التفصيل فتحاً لباب الاجتهاد . . وإن التفصيل إن لم نجده أحياناً في آيات الكتاب فإنه موجود في آيات الآفاق والأنفس .

مثلاً : الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ محكمة مجملة تحدد قواعد هامة وعامة . . ولكن كيف يتحقق العدل والإحسان ؟

هذا ما فصلّته آيات كثيرة تتحدث عن الزواج والطلاق والبيع وتحريم الربا والترغيب بالقرض الحسن وغير ذلك . .

ولكن شؤون المعاملات في الحياة ازدادت تعقيداً . . مثلاً : ظهرت فكرة الضمان والتأمينات بالنسبة للعمال وأنه تؤخذ نسب من أجورهم لتحقيق ذلك . . وقد لا نجد آية تنص على هذه الأحكام الفرعية . هنا يظهر التفصيل في كل ما دلت عليه آيات الآفاق والأنفس (علوم الكون والإنسان) وابن القيم يقول : حيثما كان العدل فثم شرع الله . لأن الله يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾

إن القرآن لا يمكن أن يفصل في كل ظرف . . بل هو كتاب يعطي

---

(١) رأي صاحب المنار أن التفصيل قسمان : ١ـ تفصيل أصول العقائد (في المكية) ٢ـ وتفصيل الأحكام العملية من العبادات والمعاملات المدنية والسياسية (في المدينة) .

القواعد لأولي الألباب كي يستخرجوا منها ما يناسب كل ظرف وعصر . .
بل إن بعض الآيات تشعرنا أن أمراً ما يكون أحياناً واجباً أو مباحاً وفي ظرف آخر يكون مكروهاً . . مثل قوله تعالى :

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : ١٤٨] .

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء : ١١٤] .

وإعمال الفكر وفق قواعد الإسلام هو الذي يفصل لنا موضع كل حكم .

﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ الحكيم هو الذي يضع الأمر في مكانه المناسب فهو الذي يحكم التدبير ويحكم البناء . . وهو الذي أحكم الآيات المحكمات والخبير : هو الذي يعلم الأمر بدقائقه . . فهو قادر على شرح التفاصيل وهو الذي فصل الآيات المفصلات .

هذا الكتاب من عند الحكيم الخبير . . ولا يتفاعل معه إلا من مشى في طريق الحكمة وكانت له خبرة في الحياة . . وانتبه إلى أبعاد المحكم والمفصل في الكتاب ولهذا كان من جملة ما وصف به (عِباد الرحمن) ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان : ٧٣] .

ما الذي حواه هذا الكتاب ؟ وإلى أي شيء يدعو ؟

٢ـ الأسس التي دعا إليها الكتاب :

أول شيء ينص عليه هذا الكتاب هو الدعوة إلى التوحيد :

١)ـ ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ وهو موضوع كبير جداً في الإسلام وفي الحياة . الإسلام قال للناس ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾ [آل عمران : ٦٤] فلا

أحد فوق البشرية ولا أحد فوق القانون.. وفي ذلك تنحية للاستكبار والاستضعاف و رفض لكل خضوع أو إذلال لهذا الانسان . فمن رفض ذلك فقد رفض التوحيد

ـ والجميل في الموضوع أنه يبدأ من المستضعفين فيقول لهم ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾.. ولم يبدأ من المستكبرين فيقول لهم (لا تستعبدوا الناس).. وسنرى في قصص الأقوام السابقة ـ في القسم الثاني ـ كيف تتكرر على لسان كل الأنبياء لأقوامهم : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ و ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾..

إنه المنهج الصحيح للتغيير في هذه المشكلة العالمية (الاستكبار والاستضعاف) وهو الذي حرر الضعفاء في مكة.. وهو الذي أقام المجتمع الرباني السوي.. إن علاج المستضعف وجعله يرفض إلغاء ذاته.. هو مفتاح القضية . وكلمة التوحيد تبدأ بـ (لا) فهل أصبحت لدينا القدرة على قول (لا) في الوقت المناسب.. ؟!

الإنسان السوي هو الذي يرفض أن يكره غيره ويرفض أن يكون مكرهاً على شيء.. الانسان السوي هو الذي يحاور ويحترم الأخر ويحترم ذاته وإرادته ويثبتها.. ذاك هو التوحيد .

ولا يعني رفض الإكراه الانزلاق إلى العنف مع الآخر.. بل إن رفض الإكراه هو نبذ للعنف بكل أشكاله . فأنا حر فيما أعبد والآخر حر فيما يعبد ولا يحل انتهاك أي من الحريتين..

فالله يقول لا تطعه ـ في المعصية ـ ولو قتلك.. والله يقول ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ فأطع الله ولا تطع الهوى والغضب فتعتدي على من يخالفك وتلجأ إلى الإكراه.. فإذا لجأت إلى العنف والإكراه فقد خرجت من طاعة الله وكنت مثل الآخر .

ـ ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

إنها مهمة الأنبياء : الإنذار والتبشير . والعلماء ورثة الأنبياء . . وعلى الدعاة أن يراعوا البقاء في دعوتهم بين الأمرين الانذار والتبشير . . بعواقب الدنيا والآخرة . لأن الإنذار وحده قد يؤدي إلى اليأس والتبشير وحده قد يؤدي إلى الأمن والاسترخاء . وبقاء الانسان بين الخوف والرجاء هو الذي يشحذ همته ويحرك فعاليته .

٢ـ ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ مالفرق بين الاستغفار والتوبة ؟

الاستغفار : هو إعلان الندم باللسان والتوبة : هي إعلان الندم بالسلوك حيث نجد أن : تاب وثاب بمعنى واحد : أي عاد . فهي التغيير السلوكي .

وهذا لا يحدث إلا إذا اتصف الانسان بالقدرة على النقد الذاتي وسماع النقد والإسلام يربي الفرد على تقبل ذاته كإنسان معرض للخطأ في الفكر والسلوك .

ونجد أحاديث كثيرة تعزز هذا المفهوم من مثل : « يا عبادي إنكم تخطئون بالليل و النهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم »[1] .

ومرحلة التوبة في العمل متأخرة عن الاستغفار ولهذا تأتي الآية ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ .

وكذلك تأتي الأذكار الاسلامية بالاستغفار قبل التوبة . . لأن الاعتراف بالخطأ أولاً لا بد أن يتم حتى يتوجه الانسان للتغيير . .

كيف تكون التوبة حقيقية ومقبولة وليست كلاماً منمقاً يردده الانسان

---

(١) رواه مسلم .

كما يفعل المسلمون الآن . ؟! بينت الآيات ذلك من مثل قوله تعالى :
﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ ﴾ [النساء : ١٧] ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

٣ـ ﴿ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ المتاع : كل ما ينتفع به في المعيشة . وكأن الآية تجعل هذا المتاع نتيجة للاستغفار والتوبة وتصفه بأنه (حسناً) .

ـ﴿ وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ ﴾ فلا يظلم صاحب فضل ولابد أن يأخذ أجره .

ـ ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴾ ولا يحدد هل في الدنيا أم الآخرة ؟! الآية هنا في منتهى الدقة وتشير إلى حقائق كبيرة نحاول عنونتها :

١ـ النتائج في الدنيا جماعية (يمتعكم) وفي الآخرة فردية ﴿ وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ ﴾ فقد جاء الوعد بالمتاع بصيغة الجماعة وحدد بأنه « إلى أجل مسمى » وأما الوعد الفردي لكل ذي فضل بأنه سيأخذ أجره فلا يكون كاملاً إلا في الآخرة .

٢ـ من أعرض عن النقد الذاتي والتوبة والتصحيح فإنه مهدد بعذاب في يوم كبير قد يكون هو يوم ظهور العواقب للفساد في الدنيا .

٣ـ الآية تضع قانوناً : استغفار+ توبة (تصحيح عملي) ← متاع دنيوي حسن . وهو قانون اجتماعي يُلزم المجتمعات الإسلامية بالمراجعة . . والعالم الإسلامي يعاني الآن من الأزمات الاقتصادية والثقافية

والصحية . . إنه القصعة التي يأكل منها عالم الكبار وهو لا يكاد يبصر لنفسه خلاصاً . . فأين الخلل ؟

لا بد من كشف النقص لتلافيه .

كنت قد قرأت خبراً في جريدة الاتحاد[1] الصادرة بتاريخ ١٩٩٨/٧/٧ يقول : (حث رئيس الوزراء الماليزي مها تير محمد أمس المسلمين على تطوير نموذج لتطبيق الإسلام بطريقة تناسب العصر الحديث مقترحاً التقليل من العبادات و التركيز على العمل وتلقي العلوم الطبيعية كمفتاح للنجاح والقوة . وقال خلال حفل بمناسبة المولد مخاطباً (١٢) ألفاً من مواطنيه في كوالا لمبور [ليس كافياً للمسلمين أن يُصلُّوا فقط ويقضوا كل الوقت في أداء شعائر العبادات الأخرى فليس كل الطموحات والأحلام تتحقق في طرفة عين] وأضاف [إن المسلمين يعتقدون أن الطريقة الإسلامية في الحياة هي الاستعداد للدار الآخرة فقط . ولكن يتعين أن تجتهدوا لتحقيق نجاح أكبر على صعيد العالم وأن يعملوا بجد في وقت تواجه فيه ماليزيا أزمة اقتصادية] وتساءل [ألا يحق للمسلمين أن يقودوا تطوير المعرفة الطبية والصحية وكل المعارف الأخرى التي تساعدهم في الحفاظ على أنفسهم وحماية دولهم ؟ أين مكاننا في الدار الآخرة إذا طبقنا جزءاً فقط من التعاليم الإسلامية ؟ ألسنا مذنبين إذا تجاهلنا أو رفضنا دورنا القيادي في العالم ؟] وشدد مهاتير على أن الدول الإسلامية لا يمكنها أن تعزل نفسها ويتعين أن تتكامل مع باقي العالم وإلا تم تهميشها إذا لم تكن على نفس المستوى في مجال العلوم والتكنولوجيا) .

---

(١) جريدة يومية تصدر من أبو ظبي .

وجدت في هذا الكلام محاولة للكشف عن مواضع الخلل ومباشرة التصحيح والأمر محتاج إلى متابعة في البحث والتخطيط لتحقيق التوبة .

٤ـ قوله تعالى ﴿ مَّتَٰعًا حَسَنًا ﴾ يعني أن هناك متاعاً غير حسن . ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : ١٢] وبعض الأمم قد حددت لنفسها (الاستمتاع) كمثل أعلى ووصلت إليه . ولكن النفس الإنسانية التي خلقها الله في أحسن تقويم لا ترضى بمتاع حيواني فقط ولا بد من نعيم الارتقاء .

ثم يذكر بوضوح بالعاقبة النهائية في الآخرة ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قادر على بعث الجميع وإيقافهم لمناقشة الحساب في هذا الحشر . . ومنحهم النتائج .

٥ـ هذه الآيات تلخص أسس الدعوة التي يعرضها النبي ـ والدعاة من بعده ـ على الناس ويختمها ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ فالداعي مشفق يخاف على الناس من العاقبة . . قلب الداعي مليء بالرحمة والحنان . . وهذا الحب العظيم هو الذي يفتح قلوب الناس ويحييها بعد الموات .

٦ـ هذا التسلسل في العرض نحدد له معالم لا بد للداعي من أن يراعيها :

١ـ بيِّن الحق واعرضه بوضوح .

٢ـ لا تتسرع في إهانة المعارض .

٣ـ ذكرّه بالعواقب .

٤ـ أظهر له حبك وإشفاقك عليه منها .

٣ ـ علم الله الدقيق بأحوال الناس والكون :

« ألا إنهم يثنون صدروهم ليستخفوا منه » هنا يأتي بدء تعريف الناس بربهم الحق الذي طلب منهم أن يوحدوه في العبادة . فهو العالم المحيط بكل خلقه.. وهو الرازق لكل خلقه . أما كيف كانوا يثنون صدروهم فقد فسرها بعضهم : بإعراضهم التام واستدبارهم للنبي عند تلاوته القرآن وفيها تصوير لما كان يحاوله بعض الكفار والمنافقين عند سماع القرآن من الاستخفاء بتنكيس الرأس وثني الصدر حتى لا يظهر ما بهم ويعرف من وجوههم . وقد يكون هذا لإخفاء تأثرهم بالقرآن عناداً واستكباراً .

فكأن الضمير في « منه » يعود على الرسول ﷺ . . ولعل إيمانهم بالله كان هزيلاً إلى درجة أنهم ظنوا أنه يمكن أن يستخفوا « منه » أي من الله . ولكن الله سبحانه تحدث عن أمثال هؤلاء على أنهم يهتمون برأي الناس أكثر مما يهتمون بعلم الله فيهم ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [النساء : ١٠٨] .

ـ ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ وأخفى ما يكون ابن آدم إذا حنى ظهره واستغشى بثوبه وأضمر همه في نفسه . وقيل أيضاً : يستغشون ثيابهم عندما يأوون في الليل ويتغطى كل واحد بثوبه ويظن نفسه في خلوة لا يطلع عليه فيها أحد . ولكن أنى ذلك على الله ؟ ! ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ وذات الصدور هو السر الذي لا يبرح الصدر فكأنه ملازم مخالط له .

ـ نلاحظ في هذه الآيات وكأن الله يعالج ما في النفوس من معوقات في طريق عبادته وحده . . فكأنه يقول لهم : لماذا تتملصون من عبادتي ؟ هل

تظنون أن أمركم يخفى عليَّ ؟!

هل تخشون إن أطعتموني أن يفوتكم رزقكم أو يُقتَّر عليكم ؟!

هل تظنون أن السموات والأرض خلقت عبثاً بدون هدف ؟!

أتظنون أن لن تسألوا وتحاسبوا بعد الموت ؟!

ألا تصدقون الإنذار إلا إذا وقع عليكم العذاب فأنتم تستعجلونه ؟!
حول تلك النقاط تدور الآيات (إلى آخر الآية الثامنة)

- ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وكل ما يدب على الأرض هو دابة . وإن للرزق سنناً وضعها الله . . فما يأكل إنسان ولا حيوان ولا دابة إلا بحسبها . . فكيف يتوه الإنسان عن ذلك ويظن أن رزقه بيد طاغوت أو مستكبر . . ؟!

كيف يظن أنه إن أطاع الله والتزم بأمره تعرَّض لقطع الرزق . . ؟!

إن عبادة الله هي طاعة أوامره وسنته . . إن الله قد سخر الأرض لهذا الانسان ليستخرج منها رزقه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [تبارك : ١٥] فمن مشى في مناكبها : كشف قانونها وقام بما عليه من تسخير أكل من رزق الله مؤمناً كان أم كافراً . . أما من قعد عن العلم والعمل وادعى أنه متوكل على الله فذاك هو المتواكل المعرض عن العبادة الحقيقية لله . . وحين نتأمل المجاعات التي تحدث في بعض بلدان أفريقيا نجد الانسان هناك قد أغرق نفسه بالجهل والعطالة والحروب الأهلية . . بينما الانسان الياباني قد شيد من جُزُرِهِ الفقيرة التربة (لا تصلح للزراعة وليس فيها ثروات معدنية كثيرة) حضارة نافست أمريكا في صناعتها .

وانظر إلى العالم الإسلامي اليوم يجثم فوق بحيرات الذهب الأسود

وينعم بالطاقة الشمسية ـ لو أراد أن ينعم بها ـ وقد اعرض عن عبادة ربه . . فأذله الله تحت اقدام الأمم المستكبرة وقتّر عليه رزقه . . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ؟!

خرج عبدالرحمٰن بن عوف مهاجراً إلى المدينة وقد ترك داره وماله . . دخل المدينة وهو لا يكاد يملك درهماً . . آخى رسول الله بينه وبين أحد الأنصار فقال له الأنصاري : أعطيك نصف ما أملك من مال وغلال وعندي زوجتان أطلق واحدة كي تتزوجها . . قال عبد الرحمٰن : بارك الله لك يا أخي في مالك وأهلك . ولكن دلني على السوق . . فانطلق يعمل ويتاجر حتى أصبح من أغنى الناس في المدينة حتى أصبحت أرض المدينة ترتج من وقع أقدام الإبل القادمة بتجارته وأمواله . . وهو ينفقها في سبيل الله .

ـ ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ المستقر : حيث تستقر في إقامتها . و المستودع : حيث تكون مودعة إلى حين (وكأنها وديعة تسترد بعد حين) فالله يعلم عن كل دابة مكانها في الحياة والممات وفي الآخرة حيث المستقر .

ـ ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلق كلها . ولكن وصف (مبين) هنا يلفت النظر . . !! كيف يكون مبيناً لنا وعنه لا نطلع على اللوح المحفوظ ؟!! ألا يمكن أن يكون الكتاب المبين) آثاراً في الأرض التي تحفظ كل دابة في ترابها وصخورها . . لتتحدث بعد ذلك عن أخبارها . . أين عاشت وبماذا تغذت وأين ماتت . . ؟! والله أعلم .

٤ ـ خلقكم والكون ليبلوكم أيكم أحسن عملاً :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

ماذا تعني كلمة السموات ؟ وفي آيات أخرى « سبع سموات » ؟ ذلك أمر قد يعرفه الفلكيون في المستقبل . . فقد تبين للناس أن السماء أكبر من (المجموعة الشمسية) التي هي جزء صغير جداً من المجرة . . وعرفوا أن هناك آلاف من المجرات . .

أما الأرض فقد أصبح الإنسان يعرف عنها أكثر خاصة بعد أن بدأت تحدث أخبارها عن طريق أشجارها وطبقاتها المتراكمة .

أما الأيام الستة فلا يمكن أن تكون أيامنا التي نعرفها لأن أيام الأرض لم توجد إلا بعد خلق الأرض وتنظيم حركتها . ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ . . ولكل كوكب أيام تختلف في الزمن عن أيامنا . وما زال في الكون ألغاز كثيرة تنتظر ذكاء الإنسان الذي سخرت له السموات والأرض . فيا ضيعة الإنسان والحياة حين يكرس الذكاء للمكر والاقتتال . .

ـ ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ ما هو العرش ؟ وأين هو ؟ ولماذا على الماء ؟ لا نملك إلا ما رُوي عن السلف الصالح : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وإنكاره كفر . (في تفسير ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾) الشيء الوحيد الذي ألتقطه من الآية : شرف هذا العنصر (الماء) وأهميته في الخلق والحياة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ .

ـ إن الله يحدثنا في هذه الآيات عن قدرته وإبداعه في الخلق . أما كيف بدأ الخلق فهو متروك للعقل الإنساني يبحث فيه ويكتشف السنن بعد

أن حفزه الله على البحث وحرره من الوهم والخرافة وعلّمه أن يطلب البرهان في البحث العلمي .

ـ ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الابتلاء هو الامتحان والاختبار . فتأمل كيف يحدد الغاية من خلق الكون . . إنه الامتحان لهذا الإنسان الذي أعطاه الله من المواهب ما يمكنه من التجول في قاعة الامتحان (السموات والأرض) وتسخير ما فيها لتطوير الحياة إلى الأفضل (وهي الأمانة التي حملها) .

ـ ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . فما أروع هذا التنافس على النمو والارتقاء . لا تنس أيها المؤمن أن عليك أن تسعى إلى (الأحسن) وليس فقط إلى (الحسن) فهناك عمل صالح وهناك ما هو أصلح . . وينبغي مراعاة التطور التاريخي فما كان صالحاً لعصر ربما يصبح فاسداً لعصر أرقى . . شبهت إحدى الأخوات ذلك بما يكتب على المعلبات (صالح لغاية كذا . . ويكتبون تاريخ انتهاء الصلاحية) وبعد انتهاء التاريخ يفقد الغذاء صلاحيته بل قد يصبح ساماً مهلكاً . .

ولنضرب مثلاً بأسلوب التعليم في الماضي : حلقات العلم في المساجد أو التكايا إن هذا لم يعد صالحاً لهذا الزمان الذي تطورت فيه أساليب التعليم بشكل هائل . .

ـ فالإحسان في العمل هو الاتقان بحيث يُؤدَّى العمل وفق أفضل تطوير وصل إليه الإنسان . فالطبيب الآن لا يصل إلى التشخيص والمعالجة الأحسن إلا باستعمال ما جدَّ من أجهزة وأساليب (تحليل وتصوير بأنواعه) وكم تبدو المسافة شاسعه هنا .

ـ كذلك نلاحظ أنه سبحانه قال ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولم يقل (أحسن قولاً) . .

ومع أن (القول) هو جزء من (العمل) ولكن قد يكون القول مجرد تبجح فارغ[1] .

ـ ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ كيف ننسى هذه الحقيقة الهامة في زحمة الحياة ومشاغلها . . ؟! لا بد من أداء كل حركة من تفاصيل حياتنا اليومية على الوجه الأحسن والأفضل إن كنا ندرك حقيقة هذا الامتحان الإلهي .

ولكن هل يرتقي إلى هذا المستوى من يكذب بالبعث والحساب ؟! ولا يرى إلا العاجلة ؟!

٥ـ المكذبون ينكرون الآخرة ويستعجلون العذاب :

﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ إن قضية البعث للحساب تعتبر حديثاً في الغيب . والطفولة البشرية تركز على المحسوس ولهذا كان الأقوام في الماضي يطلبون المعجزات والخوارق كدليل حسي .

وقد كان الكفار لا يرون عواقب الإحسان في العاجلة وهذا بشككهم في الدين بينما يرى المفكرون أن هذه النقطة بالذات هي مدعاة للإيمان بالآخرة[2] .

فالإنسان لا يقتنع أن تنتهي الحياة دون أن ينال المحسن والمسيء جزاءهما . .

---

(١) في الآية ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر : ١٠] تمييز ورفع للعمل على القول .

(٢) تحدث وحيد الدين خان عن ذلك في كتابة (الإسلام يتحدى) .

ولا بد من عالم آخر يتحقق فيه العدل بين الجميع . وق تحدث القرآن عن الآخرة من حيث إمكانية الوقوع ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : ٧٩] ووصف أهوالها في آيات كثيرة . . ومن حيث المبرر لوقوعها ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] .

وعن ضرورة الإيمان بها لإعطاء الطمأنينة للنفس الانسانية . ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ [سبأ : ٨] . .

ـ إن للإيمان بالآخرة شأن كبير في الحياة الانسانية فهي الحافز الدائم للإحسان وهي العزاء الكبير لمن ظلم في الدنيا . . والأمل باللقاء لمن فقد أحبابه . . إنها مصدر قوة للضعيف وسوط رادع للمستكبر . . إنني على يقين بأن الحياة لا تطاق ولا يمكن الصبر عليها لولا الإيمان بالآخرة .

واتهام الكفار لمحمد ﷺ « إن هذا إلا سحر مبين » فيه اعتراف صريح منهم بشدة تأثير دعوته في الناس . كيف يؤثر في الناس وهم لا يرون دليلاً محسوساً . . ؟! وأين العذاب الذي يتوعد به المسيئين . . . !

ـ ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ والأمة هنا بمعنى مدة من الزمن مثل قوله في سورة يوسف ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ إن الله جعل للأعمال ـ سيئة كانت أو حسنة ـ نتائج عاجلة وآجلة وهذا يحدث أحياناً في الدنيا فقد يحس شارب الخمر بلذة عاجلة . . لكنه سيعاني من خلل في جسمه وعائلته وحياته الاجتماعية بعد حين . . حين تنقضي (الأمة المعدودة) التي حددها الله لنضج النتائج النهائية في الدنيا . ولذا يأتي الرد ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ لأن المعاصي تخالف سنن الحياة والكون . . والنتائج تأتي حتمية ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢] .

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ نزل وأحاط بهم الأمر الذي

سخروا منه . وهنا يصبح الأمر مناسباً لعرض عيوب هذا الإنسان الانفعالي المتسرع :

٦ـ الانسان في الرحمة والشدة إلا الذين صبروا :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ .

وهكذا يتقلب الإنسان مع انفاعلاته من يائس جحود إلى غافل متبجح فخور والناس في هذه البلوى سواء إلا الذين صبروا . . فسيطروا على الانفعال والاندفاع .

ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الآيات تعرض علينا نوعاً من الابتلاء . . ـ وقد سبق أن الابتلاء هو القصد من الخلق ـ لهذا الإنسان ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٥٣] . فإذا بالإنسان عند الشدة « يؤوس كفور » يجمع بين اليأس مما نزع منه والكفر بما بقي له لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر . وإذا به عند النعمة ينساق في فرحه فيغفل عن المنعم ويدَّعي ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] فيفتخر ويتعالى على الناس . . إنه إذا جاع ينسى الشبع وإن شبع نسي الجوع وإذا أمن نسي الخوف وإذا خاف نسي الأمن . . حقاً إنه عجيب في ضعفه وتسرعه . .

ـ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ فكيف نحصل على هذه الصفة حتى ننجو من هذا التأرجح . . ؟! هل يمكن لهذا الانسان الذي خلق من لحم ودم أن يفقد الإحساس بالألم والفرح ؟!

وهل الصابر قد فقد الاحساس ؟! إن هذا غير ممكن . . بل هو قد سيطر على عواطفه .

ـ ما الذي يجعل الإنسان غريق مشاعره ؟! أهي النعمة أم النكبة ؟ ولكن أثر ذلك على الناس مختلف فلو أن جماعة رأوا منزلاً يحترق لاختلفت ردود أفعالهم قد يشلُّ الرعب أحدهم وقد يغمى على الآخر وقد يصرخ آخر مستنجداً . بينما يسرع الرابع ليحاول المساعدة في الإطفاء . . وآخر يتصل بجنود الإطفاء . .

هل هذه المواقف مخلوقة مع الإنسان ولا دخل لعلمه وكسبه فيها . . ؟!

وهل يخلق إنسان صبوراً حليماً . . وآخر نزقاً إنفعالياً . . ؟!

رسول الله ﷺ يقول : « إنما الحلم بالتحلُّم وإنما العلم بالتعلُّم » وصفات الإنسان وأخلاقه أكثرها مرتبطة بسعيه ومدى علمه وصفات البيئة التي نشأ فيها . بل إن الإنسان قادر على تخطي ميراثه الثقافي ـ الذي تعطيه له البيئة ـ بالعلم والاجتهاد في بناء الذات .

الصبر ثمرة للعلم . . فمن عرف كيف تبدأ الأمور وكيف تتطور . . وكيف تكون في المستقبل أدرك الصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل . ومن كشف قوانين الوقاية والعلاج لم ييأس ولم يتذمر من قضاء الله . . بل إنه سيقوم بكل ما يملك من أسباب العلاج . . ولن يقع أسيراً للمشكلة الحاضرة . . ولن يستعجل النتائج . . لأنه يعلم أن لكل أجل كتاب ولكل سبب (فترة نضج) لابد من الصبر عليها حتى تأتي النتيجة . . وخلاصة الأمر في عبارات نوجزها :

١ـ من أكبر عيوب الإنسان السلوك العاطفي لأنه يصبح منفعلاً وليس فاعلاً في أحداث الحياة . . والتربية القرآنية تنتشل المؤمن من هذا السلوك .

٢ـ الإنسان العاطفي (الانفعالي) يسهل السيطرة عليه والتلاعب به من

خلال إثارة غضبه أو حزنه أو فرحه . . وهو ما يفعله الاستعمار الحديث بالبلدان المستعمرة .

وقد خصص المرحوم مالك بن بني كتاباً في ذلك وهو (الصراع الفكري في البلدان المستعمرة) .

٣ـ الغضب أشد الانفعالات خطورة من حيث النتائج لأنه ليس مجرد امتناع من الخير ـ كما يحدث عند اليأس أو الفرح[١] ـ بل إنه اندافاع إلى الشر بالقول أو العمل .

٤ـ ليس القصد من الصبر إلغاء العواطف وإنما القدرة على توجيهها بشكل مثمر فالصبر على النعمة هو توجيه الفرح إلى شكر لله ومساعدة لخلقه . .

ـ والصبر على الشدة تدبر لأسبابها وقدرة على النقد والتوبة (أي التصحيح) .

٥ـ الصبر سلوك علمي يحرر الإنسان من نزواته ومن الماكرين .

٦ـ الصبر ثمرة للعلم . والعمل الصلح ثمرة لهما . ويمكن أن نضع التعابير الرياضية التالية .

العلم ← الصبر ← عملاً صالحاً ، فهو يحول : الفرح ← شكر ← عمل صالح .

يحول : الحزن ← صبراً ← وهو استمرار في العمل .

يحول : الغضب ← صبراً ← وهو دفع بالتي هي أحسن .

وهكذا فإن العلم ← الصبر ← زيادة في العمل الصالح ← وصول إلى الهدف .

---

(١) اليأس يمنع الاستمرار في العمل . والفرح يؤدي إلى البخل والغفلة التي توقف عن السعي .

ـ « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » تلك هي النتيجة التي يعد الله بها من بذل جهده . .

فالإنسان مهما بلغ من العلم والعمل فهو معرض للخطأ محتاج إلى المغفرة . . وأما الأجر الكبير فإن منه : الوصول إلى الهدف في الدنيا .

٧ـ تثبيت الرسول والتحدي بالقرآن :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ ﴾ .

الموضوع متصل بما قبله فكأن الله سبحانه وتعالى يحذر النبي من السلوك العاطفي أو الانفعالي فلقد كان النبيّ ﷺ يتألم ويحزن من إعراض قومه ورفضهم لآيات الكتاب وطلبهم للمعجزات فتأتي الآيات لتثبته وتبين له مقدار قوة المعجزة التي معه والتي ستبقى سارية المفعول إلى يوم الدين وهي القرآن الذي لا تنقضي عجائبه كمنهج علمي خالد .

وكلمة (لعل) تفيد التوقع والاستفهام الإنكاري : إياك أن تستسلم لمثل هذه الخواطر .

ـ ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ أفتترك تبليغهم بعض ما يوحى إليك مما يشق سماعه على المشركين ؟! والداعي قد يخطر له أن يؤجل تبليغ بعض الآيات والأحكام استئناساً للناس وحتى لا يستثقلوا طريق الإيمان . . وهو أمر وارد يستنفر ذكاء الداعي لترسيخ الأساسيات ثم الدخول في تفاصيل الدين . ومن هذا ما نلاحظه من اختلاف في المواضيع بين القرآن المكي والمدني حيث كرست الآيات المكية لبناء نظام فكري جديد يعتمد البرهان العلمي المرتبط بالواقع ويؤسس قواعد الإيمان بالله . ولم يتناول التفصيلات السلوكية الخاطئة إلا بعد تكوين

المجتمع الرباني الأول . وكان رسول الله ﷺ يبذل جهده في ترغيب قومه بالتوحيد وترك الشرك . . وهم يتملصون ويختلقون الحجج . . حتى قالوا للنبي مرة : لا نجالسك ولا نسمع لك ومعك العبيد والموالي . . إن أردت أن نسمع لك فاجعل لنا مجلساً خاصاً لا يشترك فيه هؤلاء . . ولعل النبي فكر في مجاراتهم على أمل أن يسمعوا القرآن فيتأثروا به . . ولكن القرآن تصدى لهذه الفكرة بكل قوة : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس : ٥-١٠] وذلك أن هذا الاستكبار يتنافى مع توحيد الله وتعظيمه . . فالكبرياء لله وحده والكل عبيد له . . ولا أحد يعلو على هذه العبودية فمن رفض السواء فقد رفض التوحيد ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] وهذا الموضوع ينبغي أن يعلن ويبين لكل الناس .

والرسول إنسان محب ورحيم يتألم ويضيق صدره من إعراضهم ويفكر في أسلوب يستميلهم فيه إلى الخير فيحذره الله ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٤] فلقد عصمه الله ووقاه من أن تقوده رحمته إلى الخطأ .

- ﴿ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ ﴾ إنهم يطلبون الخوارق والمعجزات بينما القرآن يقول لهم : انظروا ما في السموات والأرض . . واذكروا ما حل بمن قبلكم وراقبوا العواقب . . انظروا في الماضي والحاضر واختاروا مصيركم في المستقبل .

- آن للإنسان أن يتحرر من (العقلية الخوارقية) ولقد قضى الله أن

تكون آخر رسالة ينزلها للبشر هي هذا القرآن الذي يأخذ بأيدي الناس إلى مرحلة الرشد والاستدلال العلمي . وكما يقول محمد إقبال (إن نبي الإسلام يبدو أنه يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث . فهو من العالم القديم باعتبار مصدر رسالته وهو من العالم الحديث باعتبار الروح التي انطوت عليها فللحياة في نظره مصادر أخرى للمعرفة تلائم اتجاهها الجديد . . . فالقرآن يصرح بوجود مصدرين آخرين هما : الطبيعة والتاريخ . وروح الإسلام تتجلى على أحسن صورها في فتح طريق البحث في هذين المصدرين . ومولد الإسلام بذلك هو مولد العقل الاستدلالي)[١] .

ـ ولقد أصبح الإنسان بالعلم الآن قادراً على فعل أشياء كان ينظر إليها في الماضي على أنها من المعجزات . وهو أمر لا علاقة له بالإيمان بالله وبالقيم الدينية . .

ـ وقولهم ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ يشي بمقدار الضغط المادي ـ الاقتصادي ـ على عقول الناس . . والإسلام يحرر الإنسان من العبودية للمال بل يجعل المال عبداً للمؤمن . . لأن الاقتصاد القوي يأتي كثمرة للأفكار والقيم السليمة . . فحين يُصحَّح الفكر . . تُصحَّح الأعمال والسلوكيات . . وعندها يغير الله ما بالقوم من فقر وتخلف . . .

ـ ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ فقم بوظيفتك ولا تؤثر فيك ردود أفعالهم .

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ فالله وكيل لك وسيحاسبهم على كل شيء . . كما قال في مواضع أخرى ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

---

(١) راجع فصل روح الثقافة الإسلامية من كتاب (تجديد التفكير الديني) للفيلسوف محمد إقبال .

- وكل من يدعو ويبلغ أمر الله عليه أن يتأسى برسول الله ﷺ في معاناته من الناس وصبره عليهم ورحمته بهم وصدعه بالحق لا تنثني له قناة ولا يصده تكذيب.. وإن تغيير ما بالأنفس يستهلك جهداً ووقتاً كبيرين ولكن الثمار لابد أن تظهر في عمق المستقبل.. خاصة وأن العالم بدأ يهرول في طريق التصحيح والتسخير .

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ إن كنتم تزعمون أن محمداً ﷺ جاء به من عنده.. ومحمد ﷺ أمي لم يتعلم فنون الخطابة والبلاغة فأنتم أرباب البلاغة وأنتم أقدر على أن تأتوا بمثله.. وقد تكرر هذا التحدي في القرآن : مرة بأن يأتوا بمثله (على الإجمال) ومرة بأن يأتوا بسورة.. وهنا يتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله.. فلماذا عشر سور!

ربما لإظهار الاعجاز القرآني الذي يعرض الموضوع الواحد بأساليب منوعة مع تصريف في الأدلة والأمثلة.. حتى قصص الأنبياء تتكرر ولكن كل سورة لها نكهتها وطابعها الفريد وخطها في التأثير والايحاء . والله أعلم .

كل هذا مع عدم وقوع الاختلاف والتناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] . ولا مانع بأن تستنصروا بمن تريدون ليعاونوكم .

- ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وقد تعني الآية دعوة إلى التحكيم فمن كان عنده علم فليأت وليشهد لكم أن كلامكم مثل القرآن .

وهذا ما قاله في موضع آخر ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وفي ذلك تدريب على المنهج العلمي العادل . . فليس كل من ادعى أمراً يصدق بل لابد من شهادة أهل العلم والاختصاص .

ـ ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ وفي سورة البقرة قال لهم ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ وهو تحدٍّ لا مثيل له في نفي قدرة البشر على الإتيان بمثله إلى يوم الدين . . والمشركون لم يقدروا ولم يستجيبوا لهذا التحدي . . وكل ما قدروا عليه أن يقولوا عن القرآن (سحر يؤثر) .

ـ ﴿ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ بإذن الله . . ويحوي علماً من الله .

ـ وجانب آخر يجب أن تعلموه وتتأكدوا منه وهو ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ مثل قوله تعالى ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فلقد أصبح التوحيد علماً .

ـ والخطاب للمشركين : إن لم يستجب لكم الأنصار ولا الشهداء . . فاعلموا أن هذا القرآن معجز من عند الله الواحد . . ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ؟!

٨ـ تفضيلهم الدنيا هو سر كفرهم :

وهذه من العقبات في طريق الإيمان لمن كان قصير النظر لا يرى إلا العاجلة أما النتائج البعيدة المدى في الدنيا والآخرة فلم تدخل في حسابه . .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ الدنيا إما من الدنو فهي العاجلة وإما من الدناءة (دَنَأَ وَدَنُؤَ) فهي الأحط من الحياة الأخرى .

والآية تنص على قانون العطاء في الدنيا فهو مرتبط بإرادة الانسان وعمله ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ .

وموضوع الإرادة يذكرنا بما كتبه الأستاذ جودت سعيد في كتابه

(العمل قدرة وإرادة) نقلاً عن ابن تيمية : (إذا توفرت الإرادة الجازمة والقدرة التامة تحقق المراد) وهو موضوع رددناه كثيراً بمصطلحات أخرى : إخلاص + صواب = عمل ناجح في الدنيا والآخرة .

والإرادة هي المحرك الدافع ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ [التوبة : ٤٦] ولا تنفع إلا إذا دفعت الانسان لكشف طريق الوصول إلى ما يريد (أي كشف السنن) .

والتعبير دقيق في الآية ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ فسيأخذون نتيجة أعمالهم في الدنيا دون غبن أو نقص . ولكن ما أشد حرمانهم إذ وجهوا إخلاصهم للدنيا ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا ﴾ فأعمالهم تبطل وتهلك في الآخرة لأنها فقدت أحد الشرطين الضروريين للفوز فيها : الإخلاص لله أو إرادة الآخرة عنده ﴿ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

ـ ونلاحظ أن الخطاب في الآية جماعي ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ وذلك من دقة القرآن في تقرير سنة الأعمال في الدنيا فهي جماعية (النتائج بحسب عمل الأكثرية) وهكذا يرتبط مصير الأمم في الدنيا بإرادتها وعلمها وعملها عطاء عادلاً .

أليس من العدالة أن أرضي يكون حصادها للزارعينا

ـ ولكن هل إرادة الآخرة تعوق العمل للنجاح في الدنيا ؟! إن الله جعل الدنيا مزرعة للآخرة ولكن الفرق الوحيد بين المؤمن والدنيوي أن المؤمن يتوجه إلى الله وحده في المقاصد والعلم والعمل . والناس يكشفون يوماً بعد يوم أن تحقيق دنيا سعيدة للمجتمع يتفق مع وصايا الدين وأوامره . . وأن المعاصي التي حرَّمها الدين تضر بالفرد والمجتمع وإن كانت خداعة أحياناً بلذة عاجلة .

إن إحساس المؤمن بأن ما عند الله خير وأبقى وأنه لا يظلم مثقال ذرة بل يضاعف الأجور والعطاء. . إن هذه المعاني تشحن الروح وتعطي القدرة على التفاني انظر إلى النبيَّ ﷺ وأصحابه يوم حفر الخندق : ثلة من الجياع المقرورين المجهدين تحاصرهم حشود من القبائل العربية بعددها وعتادها. . والرسول يعمل ويردد (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة . فاغفر للأنصار والمهاجرة) يرتجز لهم ويحيي نفوسهم بذكر الآخرة. . فينشطون ويتنافسون على العمل .

والآن نحن نبصركم كان لتعب هذا المجتمع الصغير من خيرات وبركات عمت العالم لعدة قرون تحت ظل الحضارة الإسلامية. . وما زالت أملاً يحيي القلوب .

ـ أما من يمتنع عن المعاصي من أجل الدنيا ولا يؤمن بالله ولا يرجو الآخرة. . فإنه يحصل على جزائه في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب لأنه لم يردها .

ولكن هل سيكون سعيداً وقد حرم نفسه من الصلة مع الله ؟!

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] إن الحاجة إلى الإيمان بالله أصيلة. . وهي التي تمنح النفس سكينتها .

٩ ـ الرسول على بينة وله شاهدان :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ بصيغة التساؤل المتعجب : أإنكم لتكفرون وتكذبون بهذا الرسول الذي معه أدلة وبراهين من الله على نبوته .

ـ ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ قد يكون المعنى : وهذا النبي يتلو القرآن الذي هو شاهد من عند الله على نبوته ـ ويكفي أنكم عجزتم أن تأتوا بمثله ـ

أو ﴿يتلوه﴾ بمعنى يتبعه أي سيأتي بعده شاهد من الله يشهد له بأنه حق ووحي من الله. . وكأنها إشارة إلى ما سيكشفه الإنسان باستمرار من آيات الآفاق والأنفس التي تشهد بأن القرآن حق .

ـ وأما الشاهد الثاني : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ وهو يشهد من جانبين :

١ ـ تصريحه بالبشارة بمحمد ﷺ .

٢ ـ التشابه بين الكتابين في الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . . وفي كثير من الأوامر والنواهي .

ـ ويصف كتاب موسى : ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ فهو إمام متَّبع يهدي إلى الخير ويمنح الرحمة لمن يتبعه . . وذلك في زمن نزوله وقبل أن يتعرض للتحريف والتبديل .

ـ والمراد هنا المقارنة : إذ أن جواب الاستفهام (أفمن) مضمر . والمعنى : أفمن كان هكذا حاله هل يستوي مع من يريد زينة الحياة الدنيا (الذين تحدثت عنهم الآية السابقة) . ويُشرف أتباع النبي بضمهم إلى صف النبي الذي هو على بينة .

ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أما الآخرون الرافضون للهداية والرحمة فلهم مصير آخر : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ فعواقبهم محددة بمواعيد موقوته . والله لا يخلف الميعاد .

ـ ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ نفهم من الآية شدة وقع التكذيب على النبي ومعاناة المصلحين في كل عصر إنهم بحاجة إلى تثبيت ورفع المعنويات . وإن هذا الإنسان ضعيف من لحم ودم قد تؤثر فيه المظاهر العاجلة ويزلزله تأخر العواقب النهائية . .

ـ ولابد أن نتذكر أن ورود مثل هذه الآيات (أكثر الناس لا يؤمنون) لم يصد النبيَّ ﷺ وأصحابه عن بذل أقصى الجهد في التبليغ رغبة في إنقاذ الناس من ضلالهم . وهذا ما ينبغي أن نحرص عليه فإنك لا تعلم من هو الميؤس منه . ولا بد من اداء واجب التبليغ والبيان في كل حال ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ ﴾ .

ـ وليس من طبيعة هذه الدعوة ولا من طبيعة البشر معها أنها حين تبلِّغ حق التبليغ وتبيِّن حق البيان (لأن البيان أكثر من مجرد التبليغ : فهو شرح الدعوة بأسلوب كل عصر واستعمال أدلته) أن تستمر الأكثرية في عدائها .

وقد ذكرت آية أخرى سبب إعراض الناس ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٤] .

١٠ـ صفات الظالمين والمؤمنين وجزاؤهم :

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ ﴾ ؟! لا أحد أظلم منه . .

أما كيف يفتري على الله الكذب . . فإن له صوراً متعددة . . أما الصورة الواضحة فهي لمن يهاجم دين الله صراحة ويفتري عليه الأكاذيب . ومنهم الجاهل الذي يخالف سنن الله في الآفاق والأنفس (قوانين الكون والحياة) ويدعي أنه يدل الناس على طريق السعادة .

ـ وهناك صورة أصعب لافتراء الكذب على الله لا ينتبه إليها كثير من المسلمين وهي لمن يُفسِّر القرآن بحسب صوره الذهنية فيقول : إن الله حرَّم هذا وفرض هذا . . لأنه هو فهم هذا . . لكن حكم الله لا يكون إلا مع العدل ومصالح الناس .

انظر إليهم مثلاً كيف يحرمون المرأة من كثير من حقوقها تحت اسم الدين ؟!

ففي بعض مناطق العالم الاسلامي تحرم المرأة من العلم والتعلم حتى الآن . . تحت اسم الدين . وحرمت من حقها في المخالعة إن كرهت زوجها . .

وبعضهم أصدر فتاوى بتحريم السفر إلى بلاد الأجانب . وبعضهم حرَّم القول بأن الأرض تدور . . وبعضهم يسمي الإرهاب جهاداً . . إلى آخر هذه الفتاوى العجيبة . . أليس هذا افتراء على الله ؟! فما أشد ظلم هؤلاء حين حرموا الناس من بركات هذا الدين ونفرّوهم من الإسلام . . لقد جعلوا صورة المسلم صورة(كاريكاتورية) مشوَّهة لا تزال موضع سخرية العالم . . فانظر إلى مصيرهم :

ـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ فانظر إلى خزيهم يوم العرض على الله وكيف يقوم الأشهاد ليفضحوهم ويشهدوا ضدهم . . فتنطلق الألسنة كلها بلعنهم ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

ـ وهنا تنبيه إلى خطورة دور الشهادة . . فالله يعلم حالهم وهو غني عن الشهادة الشهود لكنه سبحانه وتعالى يأمر بسماع الشهادة لتحقيق العدل وقطع الحجة على الناس وأقوال الشهداء لها وزن في قضايا الدنيا والآخرة . والمسلمون (شهداء على الناس) وكل رسول شاهد(وشهيد) على أمته . وكل منا سيدلي بشهادته . .

ـ ولكن دور الشهادة لا يؤدى إلا بتحقق صفات ثلاثة :

١ـ الحضور وشهود الحادثة . . ولكن المسلمين غائبون عن كثير مما يجري في العالم .

٢ـ الوعي والعلم الذي يجعلك تفهم جوانب الحدث. . أسبابه ونتائجه. .

ولو أن طفلاً دخل إلى غرفة العمليات الجراحية ورأى ما يفعل الجراح لقال عنه انه مجرم. . ولو رأى إنساناً يرفض الرد على الأذى بالمثل لقال عنه : جبان. .

٣ـ الأمانة في نقل الخبر. . وهذا أمر لا يتحقق عند كثير من وكالات الأنباء التي تسلط الضوء على حدث وتهمل آخر بناء على سياسة ماكرة. .

وإن كان العلم قد خدم الحق والعدل كثيراً إذ أن الأقمار الصناعية تلتقط كل ما يجري في العالم. . والتلاعب بالأخبار يصبح أصعب. .

ـ والأمة المسلمة لن تؤدي دورها في الشهادة على الناس حتى تحقق هذه الصفات .

ـ ويحدد صفات هؤلاء الظالمين الملعونين والضرر الذي ألحقوه بالناس بافترائهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فلقد نفروا الناس من دين الله. . ومن المؤسف أن بعض المؤمنين يتسببون في تنفير الناس بسبب جهلهم بدينهم أحياناً وجهلهم بأساليب الدعوة والنصح وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فهل يعتبر الماكر القاصد لصد الناس عن الحق. . مثل الجاهل المؤمن ؟!

ـ ومع إيماننا بأنه لا عذر للمؤمن أن يبقى جاهلاً خاصة في هذا العصر الذي أتاح فرصة التعلم والمعرفة لمعظم الناس بأجهزة الإعلام التي تزداد تطوراً. . ولكن رحمة الله أعظم من أن تسوي بين المخطىء والعامد وإن كانت نتائج الدنيا تسوي بينهما. . فانظر إلى جريمة القتل. . فإن الفاعل قد قتل إنساناً ولكنه إن كان متعمداً للقتل فجزاؤه جهنم خالداً فيها

و . . .[1] أما إن حدث القتل خطأ دون قصد فإن عليه دية وكفارة . . ولا يتساويان في ميزان الله .

ولهذا تضيف الآية إلى صفة الصد عن سبيل الله صفتين أخريين :

ـ ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فهم يريدون العوج والتحريف . . وهم يكفرون بالآخرة ولا يحسبون لها حسباناً . وهذا التحديد يعفي المؤمن من هذا المصير الأسود الذي تحدده الآيات . وقد وردت أحاديث توحي بذلك منها : قال ﷺ « إن الله يدني المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »[2] .

ـ فما هي عاقبة الظالمين ؟ قد يتسلطون على الناس لفترة . . لكن كما قال أحدهم : (قد تخدع إنساناً طول الوقت وقد تخدع الناس بعض الوقت لكنك لا تستطيع أن تخدع كل الناس طوال الوقت) . . هؤلاء لهم مصيرهم في الدنيا والآخرة :

ـ ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فإن للحياة على الأرض سنناً كتبها الله على كل شيء ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] . ولابد من سقوط الباطل بعد مجيء الحق . . كما سقطت الأصنام والجبابرة عند فتح مكة .

---

(١) راجع الآيات / ٩٢و٩٣ من سورة النساء .

(٢) من حديث ابن عمر في الصحيحين .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ من يتولى أمورهموينصرهم على سنن الله . . ؟ !

وهل استطاع أحد أن يأخذ بيد روسيا عندما تحطمت بعد أن كانت دولة عظمى بنيت على ظلم الناس وإكراههم في الدين . . على الأشلاء والدماء . . . ؟ !

ـ ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ ألم تكن لهم أسماع وأبصار وعقول ؟ !

هـذه وسـائـل للمعـرفـة . . لمـاذا عطلـوهـا . . ؟ لمـاذا « مـا كـانـوا يستطيعون » ؟ !

في آيات أخرى يقول : ﴿ختم الله﴾ على هذه الوسائل . . ولكننا صرنا نعرف أن عمل الله لا يأتي إلا ثمرة لعمل الإنسان . . فماذا فعل هذا الإنسان حتى أصيب بالعمى والصمم ؟ ! وكما يحدث في الأمراض العضوية قد يرجع السبب إلى أخطاء الفرد من حيث جهله وإهماله للوقاية . . أو إلى أخطاء الأمة التي ولد ونشأ فيها . . فهي أمة متخلفة لا تعرف كيف توفر الصحة لأبنائها . .

ـ فالإنسان قد يكون عبداً لهواه وحبك الشيء يعمي ويصم . . وعندها لا ترى من حولك إلا رغباتك . . ولا تفكر إلا في كيفية إرضاء هواك .

ـ أما الحالة الثانية فهي العمى والصمم الثقافي . . حيث أن الأمة تزود كل أفرادها بنظارة خاصة وسمّاعة خاصة . . فلا يرى الفرد ولا يبصر إلا من خلال مفاهيم أمته وعاداتها وتقاليدها . . فهل يعني ذلك أن الفرد لا ذنب له وأنه لا يستطيع الفكاك من ثقافة أمته ؟ ! القرآن لا يعفي الفرد من المسؤولية بل يطالبه بالتحرر من الآبائية (وهي النظارة الثقافية لأمته) ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] افتح

عينيك وأذنيك فإن العالم قد أصبح كالقرية الواحدة.. حاول أن تلتقط الخير وما ينفع الناس وتتبعه لتكون من عباد الله ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٧ـ ١٨].

ـ إن من لا يدرك أسباب الحدث الذي يراه ومن لا يسمع صوت تحذير التاريخ من مغبة الظلم والافتراء.. كمن يمشي في متاهة وهو أعمى وأصم.. فكيف تكون معاناته؟

﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ﴾ إن هذا لافت للنظر.. فالقرآن يتحدث عن مضاعفة الثواب وقلما يتحدث عن مضاعفة العذاب..!! فهل يقصد من ذلك جمع عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة؟! وهل في ذلك تطمين للمؤمنين في مكة الذين كانوا يقاسون من ظلم هؤلاء وإيذائهم الشيء الكثير..؟!

أم أنها إشارة إلى أنهم يحملون أوزارهم وأوزار الذين صدوهم عن سبيل الله..؟! وفي القرآن والسنة إشارات واضحة إلى ذلك..؟! كل ذلك ممكن.

ـ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وما ينفعهم أن يسيطروا على العالم إن خسروا أنفسهم؟! ما أشد خداع قوة البطش؟! توهم صاحبها بالاقتدار والسيطرة.. بينما هو عاجز عن ضمان نفسه وحماية مصيره.. إن نفس الإنسان أغلى عليه من كل شيء.. ولو يدرك الظالم أنه يدسي نفسه فيحرمها من الارتقاء وينحط بها إلى دركات الحيوان ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ﴾ فلا يهنأ له بال ولا يقر له قرار.. ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [تبارك: ١٠].

في الماضي كانت الكتب السماوية وحدها هي التي تتحدث عن خسارة النفس.. لكن الأبحاث النفسية الآن مهتمة بإعادة السواء إلى

الإنسان حتى يتمتع بالصحة النفسية التي يسميها القرآن (القلب السليم) ويستثنيه من خسارة الدنيا والآخرة .

- ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ ضاع منهم ما فعلوه ليكون مصدر ربح في الدنيا .

- ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ لا شك أنهم أخسر الناس في الآخرة .

وفي مقابل هذا الفريق الظالم المعرض عن ربه الخاسر في الدنيا والآخرة :

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ وهذا الفريق يوصف بثلاث صفات أيضاً : آمنوا - عملوا الصالحات - أخبتوا . والإيمان الصادق يدفع إلى العمل الصالح . . فلقد عُرِّف الإيمان بأنه ما وقر في القلب وصدقه العمل . وأما العمل فكيف يكون صالحاً ؟ لا بد أن يكون صواباً بحسب آيات الله في الكتاب وفي الآفاق والأنفس . . وهذا يحتاج إلى علم بالكتاب والكون والحياة الإنسانية وتطورها إلى الأفضل . . فلقد كان نظام الرق صالحاً لمرحلة تاريخية معينة لكن الآن ألغي وفقد صلاحيته . . ولا بد للمؤمن أن يراعي في عمله هذا التغيير .

ولئن كان إعداد اسلحة في الماضي لمنع الظلم عملاً صالحاً والتزاماً بأمر الله ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] فإنه فقد صلاحيته الآن وأصبحت الأسلحة وبالاً وعبئاً على الأمة . . وأصبحت القوة المطلوبة منحصرة في قوة العلم والخُلُق . وهذا أمر يحتاج إلى تفصيل وبيان خاصة في عالمنا الثالث الذي لم يدرك بعد أن الأسلحة هي الأصنام المعاصرة . . وهي لا تنفع ولا تضر . . ولهذا تخلى عنها عالم الكبار

وجلسوا إلى الموائد يتفاوضون ويحلّون مشاكلهم بالتي هي أحسن . . بل إن الدول الأوربية التي خاضت فيما بينها حربين عالميتين أحرقت الأخضر واليابس قد اتفقت على الاتحاد فيما بينها بحيث لا يخسر أحد ويربح الجميع . . لكن عالم الكبار مازال يمكر بالعالم الثالث ويثير فيه الحروب ليبيعه السلاح ويشغله عن علاج مشاكله الحقيقية . . والعالم الثالث ينطلي عليه الدجل والسحر . . ويلهث مفتوناً وراء الأصنام الحديثة .

يقطع اللقمة عن أبنائه والدواء عن مرضاه والعلم عن شبابه ليشتري بذلك كله أسلحة يقاتل بها إخوانه وتقر بذلك عين أعدائه .

- ﴿ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ الخبت : هو المكان المنخفض . . أي خشعت وخضعت له قلوبهم .

كيف يكون هذا الإخبات ؟! أحس بأنه شيء أكبر من الخضوع والخشوع . . الأمريكي (جفري لانغ) حدثنا عن رحلته من الإلحاد إلى الإيمان في كتابه : الصراع من أجل الإيمان . . وصف عذابه عندما كان ملحداً (سرعان ما تعلمت أن لا أحد يعرف الوحدة كالملحد . فعندما يشعر الشخص العادي بالعزلة فإنه يستطيع أن يناجي من خلال أعماق روحه الواحد الأحد الذي يعرفه ويكون بمقدوره أن يشعر بالاستجابة ولكن الملحد لا يستطيع أن يسمح لنفسه بتلك النعمة لأن عليه أن يسحق هذا الدافع . . الملحد يحتاج للبساطة والعزلة والانفراد . ولكنه يحتاج أيضاً أن يمد نفسه فيما وراء نفسه . .) فلما قرأ القرآن ودرسه وأسلم . . وفي أول صلاة له مع المسلمين في المسجد تذكر أنه حلم عدة مرات بأنه يصلي وفي نفس هذا المشهد . يقول عند ذلك (سرت موجة من البرد في جسدي فجعلتني أرتجف . . ثم تلاشى البرد فيَّ وتبعه دفء رقيق يشع من الداخل ففاضت عيناي بالدموع) ثم يصف شعوره بعد الصلاة (أدركت

أن الله كان قريباً دوماً مني يوجه حياتي ويخلق الظروف والفرص كي أختار . . ومع ذلك كان يترك لي مجال الاختيار في المسائل الحاسمة . تملكني الخوف والرهبة عندما شعرت بالحب والعطف الظاهرين ، لا لأنّا نستحق ذلك ولكن لأن هذا الحب والعطف كانا دوماً موجودين وكل ما علينا عمله للحصول عليهما هو أن نعود إلى الله . .) هل يوضح هذا الوصف لمشاعره معنى الإخبات إلى الله ؟!

ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ المُلاَّك الأصليون لها . . ما هذا التكريم ؟! هؤلاء المخبتين جنتهم في قلوبهم في الدنيا . . وإليها ينقلبون .

ـ ويضرب مثلاً للفريقين في مقارنة موجزة وافية بليغة :

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ﴾ ؟!

هل يمكن المقارنة بين من أغلقت عليه المنافذ فهو يرتطم بالجدران ويقع في المطبات يدور وينقلب فلا يجد مخرجاً . . وبين من فتحت له آفاق المعرفة حتى تضاعف بصره (بالمناظير والمكبرات) وتضاعف سمعه بالأجهزة الحديثة . . إنه يبصر الآيات (علامات على الطريق) ويسمع كلمات التاريخ وتحذيراته . . هل يستويان ؟! ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ تعرفون الكثير أحياناً ولكن لا تتذكرونه .

ومن المؤسف أن الناظر في أحوال العالم الآن يرى أن الأعمى والأصم يظهر في عالمنا الإسلامي بينما العالم الآخر سميع وبصير ـ في شؤون الدنيا على الأقل ـ وحتى الناس الذين يعودون إلى دينهم في عالمنا يصبح تفاعلهم مع القرآن أحياناً حرفياً وتتحول الآيات عندهم إلى أغلال وعوائق تعيق عن الحركة والنمو . . وكم سمعنا من يقول للمرأة التي تريد

الخروج لمجلس علم ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ . وكم سمعنا من يقول لمن يفكر ويناقش ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهكذا تستخدم الآيات بالمقلوب لمنع العلم والنمو . . هذه الحال كان يتوجع منها شاعر الإسلام محمد إقبال :

علـةً يصبـح مـا مـسَّ العليـل ويصيـر الكفـر دينـاً للكميـل

إن المتخلف يحمل معه تخلفه أينما حل . والعالم المتحضر يسخر منه ويستغله . . إن التقاليع والموضات تصمم خصصياً من أجل الصم العمي كي يستمروا في نومهم . . بينما تسرق أموالهم وبلادهم بل وأولادهم . .

إن الله وصف عباده (عباد الرحمن) بأنهم ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان : ٧٣] بل يتدبرون ويضعون الآية في مكانها والحكم في ظرفه المناسب حتى يصبح الأمر مصدر نفع ونمو للجميع . .

ولكن أين هم عباد الرحمن . . ؟!

ومع ذلك فإنني أرى بداية يقظة بإذن الله .

* * *

الأنبياء وأقوامهم

ويمكن أن نعطي لهذا القسم عنواناً آخر : شهادة التاريخ .

حيث يعرض علينا نماذج من الذين عموا وصموا عبر التاريخ . . ها هي تجارب البشرية توضع بين أيديكم فاعتبروا يا أولي الأبصار .

والسورة تعتبر وسطاً بين نوعين من السور فيما يتعلق بأخبار الأقوام فبعض السور تشير إلى التاريخ إشارات سريعة . . وبعضها الآخر خصصت للقصص التاريخي مثل : مريم ويوسف والقصص . . .

في هذه السورة سبع قصص متوسطة في مساحة العَرْض . . إلا القصة الأولى (نوح) فتستهلك مساحة أطول وفيها مشهد لا يتكرر في باقي السور عند قصة نوح وهو مشهد الطوفان وغرق ابن نوح .

ـ سنلاحظ في القصص القرآني تجريد القصة من زمانها ومكانها . . وأحياناً تُجرَّد حتى من أسماء الأشخاص والأقوام ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٩] ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة : ٢٤٣] وذلك يوحي بأن القرآن يخرج الحدث التاريخي من خصوصيته ليجعله عيِّنة ونموذجاً يمكن أن يُرى في كل زمان ومكان وفي كل الأقوام . . وهذه الطريقة تساعد على كشف السنة التي تخضع لها كل الأحداث . . فهي تحذف التفاصيل الفرعية الخاصة بكل قصة وتحتفظ بالهيكل الأساسي المحوري الذي دارت حوله . وبذلك يكشف دارس التاريخ الأسباب المتتالية كالحلقات المترابطة والتي تؤدي في النهاية إلى

العاقبة.. ويرى كيف أن هذه القصص والأخبار تنتظمها سنة واحدة وقانون واحد. . وبعد كشف القانون يأتي التسخير والاعتبار .

تشغل قصة نوح في هذه السورة أربعاً وعشرين آية.. وتخصص الآيات العشرة الأولى منها في عرض الدعوة والحوار مع قومه. . مما ينبه إلى أهمية الحوار في بيان الأفكار الجديدة المطروحة التي تمثل انقلاباً فكرياً مفاهيمياً يصعب على الناس تقبله . سأحاول تقريب رموز هذه القصة إلى واقعنا حتى نتفاعل مع الآيات أكثر .

١ ـ قصة نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ هنا نرى دعوة نوح تختصر في ثلاث نقاط نصّ عليها مطلع السورة ولكن بتفصيل أكثر. .

دعوة نوح	ما يقابلها في مطلع السورة عن دعوة محمد ﷺ
﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾	﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾
﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾	﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾
﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾	﴿ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

ـ دعوة نوح اختزلت في آية ونصف وتنص على ثلاث نقاط .

ودعوة القرآن في مطلع السورة تشغل ثلاث آيات وتنص على دعوة نوح مضافاً إليها قانون الحصول على متاع الدنيا الحسن (التوبة أي التصحيح)

ـ نوح يقتصر على الإنذار. . هل الإنسان في الماضي كانت تحركه المخاوف أكثر من الرغبات. . كانت الحياة قاسية وهو يحاول أن يحمي نفسه من المخاطر . !! ربما. .

لكنه ينبه أيضاً إلى موضوع البيان « مبين » ولكل عصر أسلوبه في البيان وأدلته المناسبة لما عليه الناس من معارف وعلوم .

ـ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وهذا هو لب التغيير : توحيد الله في العبودية . . الشرك هو شجرة الشر الخبيثة في النفس وفي المجتمع ولا بد أن تجتث من جذورها لتغرس في الأعماق بذور التوحيد لتنبت الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . ورسول الله ﷺ كان يقول لقومه : كلمة واحدة قولوها تدين لكم بها العرب : لا إله إلا الله . ولو أدرك المسلمون الآن معنى التوحيد لتغير حالهم .

ـ كيف جاء رد قوم نوح ؟

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ تصدى له الملأ : أي كبراء القوم وأعيانهم . ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ كبرياؤهم ترفض التسليم له بأن يكون نبياً متميزاً عليهم .

وهي قضية نفسية كثيراً ما تخفى على الإنسان . يقولون : المعاصرة فيها حرمان : بحيث يحرم عالم من الفائدة من آخر بسبب التنافس وقد يتحكم هذا في اللاشعور .

وقديماً قال علماء الحديث : إن طعن النظراء بعضهم في بعض لا يُقبل لأن وراءه التنافس .

ـ ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي رأينا ذلك منذ البداية وهو أول ما لاحظناه على دعوتك . أو : إن هؤلاء اتبعوك دون تبصرو تروي في عواقب الأمور .

ـ ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ نلاحظ أنهم لا يناقشون الأفكار التي جاء بها وإنما يطعنون بالأشخاص : أنت مثلنا

وأتباعك أراذل. . إذن أنتم كاذبون. . وإن كان في إطلاق الحكم بعض التحفظ (نظنكم كاذبين) فليس من السهل أن تحكم ـ أو نطلق حكماً ـ على إنسان (مثل نوح) عرف بالصدق طيلة حياته. . أنه كاذب .

ـ قوم نوح يتشبثون بـ (مرحلة الشخاص) ولم يدخلوا إلى (مرحلة الأفكار). .

وقد حدثنا المفكر المرحوم مالك بن بني عن المراحل الثلاثة التي يرتقي فيها الفرد ـ ويقيس نمو المجتمع عليه ـ وهي : مرحلة الأشياء ثم يدخل إلى عالم الأشخاص ثم يتطور إلى عالم الأفكار . فالمجتمع المتخلف يبقى أسير عالم الأشخاص. . يمنح ثقته لشخص ويتبعه في كل شيء وبتعبير السلف الصالح : يعرف الحق بالرجال . ولا يناقش الفكرة بأدلتها بل من خلال الشخص الذي يعرضها . هذا ينتج مجتمعاً معوقاً في نموه . وهو أمر نعاني منه في عالمنا وكثيراً ما نضطر إلى استعمال عكاز من الأشخاص نقوي به الفكرة . وقد حدث معي مرة ـ عندما كنت مقيمة في مكة ـ أن بحثت في إحرام أهل مكة فوجدت في (صحيح مسلم) حديثاً يبين أن أهل مكة يحرمون من بيتهم ـ ويقاس عليهم كل من مكث فيها ـ ولكن كثيراً من الناس ما كانوا يقبلون إلا أن يُحرموا من (التنعيم) . بحثت عن عكاز من (عالم الأشخاص) أستشهد به فلم أجد وقتها. . وشعرت بأن الفتوى بقيت ضعيفة .

ـ نحن كثيراً ما نرفض الفكرة إن لم يعجبنا حاملها . وهذا هو (التشخيص أو التجسيد) والرسالات السماوية فيها تدريبات للبشرية حتى ترتفع إلى مرتبة الأفكار حيث الارتباط بالفكرة الصحيحة مهما حل بصاحبها . ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ومن أخطار التشخيص أنه يحرم من

النمو الفكري وتقبل الأفكار الجديدة النافعة ويسهل للخبثاء ضرب الفكرة الجيدة في (مجتمع التشخيص) بالطعن بصاحبها وتشويه سمعته . ونحن حتى الآن عندما يعرض علينا كتاب أو بحث نهتم بمعرفة المؤلف أولاً كي نقرأ البحث .

والعالم يتطور حتى أصبحت الكتب والأبحاث ثمرة جهد جماعي تشترك فيه مجموعة من الباحثين .

- وهنا نرى نوحاً يهمل الجانب الذي ركزوا عليه ويسحبهم إلى الحوار معه حول الفكرة ولا يقف مجروحاً من الطعن بشخصه وبأتباعه ولا يضيع جهوده بالدفاع عن الأشخاص ولا ينزلق إلى المهاترة ورد الصاع لهم صاعين . . إنه ملتزم بأدب رفيع للحوار - ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أنا عندي بينة وأدلة أرجو أن تتأملوها ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ إنها الرسالة التي فيها كل الرحمة لمن يقبلها . هلا رأيتم ما فيها من رحمة . . ؟ هلاّ نظرتم في البينة التي أقدمها لكم . . ؟!

- يا قوم : أنا منكم وأنتم أهلي وأنا حريص على مصلحتكم وسلامتكم . .

﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ هي التي عُمِّيت ولم تظهر ولستم أنتم العميان . . !! انظر إلى أدب الحوار ومقدار ما يبذله نوح من ود . .

- ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ سؤال استنكاري يؤكد فيه أنه لا يريد أن يكره أحداً على الأخذ بهذه الدعوة . . وهذا يوحي بأنهم توعدوه وهددوه بالأذى إن لم يترك هذه الأفكار ويكف عن الدعوة إليها . . فهو يؤكد حرية الإنسان في دينه .

- وهي ميزة للأديان السماوية إذ أنها حررت الإنسان من كل الضغوط وخاصة في مجال الفكر فإنه لا يُسمح لصاحب الحق أن يضغط على من

كان في ضلال و يكرهه على ترك دينه وأفكاره .

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ نوح يحدد بعض القواعد التي يجب أن يلتزم بها الداعي مع الناس . وهي قواعد التزم بها الأنبياء فصانت دعوتهم من التهم عبر التاريخ وأبقتها نبراساً للناس إلى يوم الدين . وهي :

١ـ احترام حرية الإنسان الفكرية ورفع الإكراه في الدين عنه .

٢ـ التنزه عما بأيدي الناس والتوجه بالعمل إلى الله وحده . وعفة الداعي وترفعه عن أي أجر ـ وأحياناً عن العطايا ـ له أثر كبير في نفوس الناس .

٣ـ رفض التمييز الطبقي ونصرة الضعفاء ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ تجهلون سنن الاجتماع البشري وأخطار التمييز الطبقي . . وكيف يصبح وبالاً حين يدفع بالضعفاء والمحرومين إلى الثورة التي تقضي على الأخضر واليابس كما حصل في الثورة الفرنسية والثورة الشيوعية في روسيا .

ـ إنكم تجهلون قيمة الإنسان الحقيقية . . فهي ليست في المال والمركز ولكنها بالرقي الفكري والأخلاقي ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

إنكم تجهلون حقوق الأخوة في الدين والفكر . . فكما أن الصلة قائمة في الأرحام من النسب . . فإن لرحم الأفكار صلة قوية تربط القلوب والعقول ببعضها .

ـ ﴿ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ هذه أول عبارة فيها بعض القسوة بوجهها نوح لهم . .

ولكن طفَّ الصاع . . ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى .

-إنه موضوع كبير وثورة ثقافية تزلزل عالم الكبراء والوجهاء ولكنها لمصلحتهم إن حصول كل إنسان على حقوقه وكرامته يجعله قادراً على المحبة والتعاون ويحمي الوجهاء من الحسد والأحقاد والتدبير للانتقام .

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ هؤلاء الذين تقولون عنهم (أراذل) قد آمنوا وأصبحوا في كنف الله . . ثم بأي حق أطردهم ؟ وبأي ذنب فعلوه ؟ فكيف أخرج عن دعوتي وديني وانزلق إلى الظلم من أجلكم ؟! وماذا سيكون مصيري أمام الله ؟ هل تنصرونني وتحمونني من عقابه ؟! ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ؟!

- نوح ينبههم إلى المسؤولية عن الفقراء والضعفاء أمام الله يوم القيامة . . وهو أمر لم يدخل حتى الآن إلى الضمير العالمي بالشكل الكافي رغم كل دعاوى (حقوق الإنسان) أين الضمير العالمي مما يعاني شعب العراق الآن من المقاطعة الدولية والعقوبات والصواريخ الأمريكية فوق رأسه[1] ؟ هذا مثال واحد مما يجري من مآسي في أطراف العالم الثالث . . وفرق كبير بين شعارات السلام والحوار والتعايش بين عالم الكبار ودول العالم الثالث . . وبين ما يجري من أحداث .

- إن الأنبياء يُدخلون مبادىء جديدة إلى العلاقة بين المستكبرين والضعفاء . .[2] يقولون للكبراء ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ وللضعفاء

---

(١) أكتب هذا في آذار ١٩٩٩ وما زالت القوات الأمريكية تشن الغارات على العراق منذ ثلاثة أشهر بدعوى أنها تطور سلاحاً نووياً . . والعرب ماهرون بالخطب الرنانة فقط .

(٢) في رسالة محمد ﷺ إلى قيصر الروم « أسلم تسلم فإن لم تسلم فإن عليك إثم الأكاريين » أي الفلاحين .

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ وللجميع ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .
تلك مبادىء عاشها الأنبياء فعلياً مع أتباعهم يتقاسمون معهم اللقمة والثوب والعمل والجهاد دون أي تمييز .

٤ـ ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ ﴾ لا أعدكم بالعطايا فالأمر لله ولا املك منه شيئاً أنا لا أطلب منكم أجراً . . ولا أعدكم بالعطاء فما أملك شيئاً حتى أعطيكم . . بل أدعوكم لأداء الواجب من عبادة لله وإنصاف مع الناس . وهذا معلم هام في طريق الأنبياء .

ـ إنهم لا يستهوون الناس ولا يُمَنُّونَهم بالعطاء والحقوق . . بل يطلبون منهم أداء الواجبات . . خلافاً لخطة الزعماء السياسيين الذين يعدون بتوزيع الحقوق . . ولكنهم غالباً ما يخلفون . . لأن الحقوق تأتي نتيجة لأداء الواجبات ومن لم يؤد واجبه كيف يحصل على حقوقه . . ؟! إن الأمم تبنى بأداء الواجبات وعندها تفيض الحقوق .

٥ـ ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ يتبرأ من الدجل والخرافات و التهاويل والإدعاءات . . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ إنما هي دعوة الله أبينها لكم ولن أزيف الحقائق وأتزلف لكم وأسايركم في أهوائكم إذ تشعرون بالتفوق على الفقراء والضعفاء : ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ أما أنا فلا أعلم النوايا . . ولا أورط نفسي في الحكم على أحد بالكفر أو الإيمان وإنما أمركم جميعاً لله ذي العلم المطلق .

ـ ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لو اتبعت أهواءكم وبخستهم حقهم وادعيت مالا علم لي به . بعد هذا البيان الواضح الذي ينضح بالصدق والتواضع . . يعترف له قومه :

﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ إنه اعتراف ضمني أنه لم يترك لهم حجة . .

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ هاتِ العذاب الذي تتوعدنا به .

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ يرد الأمر لله الذي لا يفلت من حكمه أحد ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ إرادتي في صلاحكم موجودة ولكنها لا تكفي .

﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ هل يريد الله أن يغوي أحداً ؟ الآية هنا تذكر عنصراً واحداً من المعادلة إذ أن إرادة الله في الهداية تأتي بعد إرادة الإنسان . هذا ما نصت عليه الآية(١٥) في هذه السورة : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ إن للهداية قانوناً يبدأ من إرادة الإنسان وسعيه والله لا يريد إلا الخير للناس ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٧ـ ٢٨] .

ـ ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ والرب هو المالك المربي المتكفل برعيته . وإليه المرجع . . فأين تذهبون ؟! إنكم تتحركون في ملكه . . وتأكلون من رزقه وتنعمون برعايته . وإليه تعودون .

ـ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ هنا تفاجئنا الآية ضمن سياق قصة نوح . . ونقف أمامها متأملين هل هي عن قوم نوح . . ؟! بعض المفسرين قالوا إنها من ضمن قصة نوح وصفاً لقومه الذين اتهموه بالكذب والافتراء في دعوته وقال مقاتل : هي معترضة في قصة نوح حكاية لقول مشركي قريش في تكذيب هذه القصص . وهو ما أرجحه والله أعلم .

ـ فالله سبحانه وتعالى أثناء عرض هذا المشهد التاريخي يلتفت إلى المشاهد ـ أو السامع ـ ليذكره أن قصة محمد ﷺ مع قومه هي نفس القصة لكن مشركي قريش كانوا يقولون عن محمد ﷺ عندما يقرأ عليهم هذه

الأخبار أنه يفتري ويكذب على الله . وأنه سمع هذه الأخبار من بعض أهل الكتاب فهو يرويها ويدعي أن الله أوحى إليه .

وتأتي اللفتة الثانية المفاجئة ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ قل لهم يا محمد : إن كنت قد افتريت على الله فأنا المؤاخذ عن هذا الجرم ولا تحاسبون عني . . ولكنني لست مسؤولاً عن أعمالكم وإجرامكم أيضاً . . ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر : ٣٨] .

ـ ولنا أن نتأمل بعض الفوائد من ورود الجمل أو الآيات المعترضة أثناء السياق القرآني عامة :

١ـ ففيه تلوين الخطاب وتنويعه لتنبيه الأذهان ومنع السآمة .

٢ـ وفي التشويق إلى سماع بقية الكلام أو الخبر .

٣ـ وفيه التأكيد على أهمية أمر معين إذ يقطع الموضوع ليذكر به . . مثل ورد آية ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ ضمن الحديث عن أحكام الزواج والطلاق في سورة البقرة .

وهو أمر أصبح الإعلام يستخدمه حين يقطع الفيلم ليعرض إعلاناً عن بضاعة . .

٤ـ تأتي بعض هذه الآيات أحياناً وكأنها قراءة لخواطر السامع ورد عليها . . وهذا من إعجاز القرآن وقدرته على اختراق النفس والفكر الإنساني .

فمن المتوقع هنا أن يخطر في بال المشركين عند سماع ما تقدم من خبر نوح أنه افتراء ويصدهم ذلك عن سماع بقيتها . . فما أعظم وقع الآية في القلوب حين تواجههم بما خطر في بالهم . وقد حدث مع عمر قبل إسلامه شيء من ذلك عندما اختبأ تحت ستار الكعبة ليستمع إلى ما يقرأ

النبيَّ ﷺ في صلاته وكان ﷺ يقرأ سورة الحاقة فقرأ ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ فقال عمر في نفسه : هذا كلام مثل الشعر في جماله . فقرأ النبيَّ ﷺ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾ فدهش عمر وقال في نفسه : إذن هو من كلام الكهان . فتابع النبيَّ ﷺ ﴿ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فازدادت دهشته وفكر : إذن ما هذا الكلام ؟! فتابع النبيَّ ﷺ ﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ . . فانصرف عمر وقد وقع الإسلام في قلبه . .

ـ ﴿ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴾ في هذا الرد تقدير لعظم المسؤولية أمام الله عن هذا القرآن . . وعن كل عمل يقوم به الإنسان . . وفيه أيضاً أدب في الحوار إذ يسوِّي بينه وبين الآخر ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] . وفيه تقرير لفردية الجزاء في الآخرة . . وفيه جهر بالحق وإعلان للبراءة مما يقوم به الآخر من أخطاء . . فإن الأدب شيء والنفاق والتغرير شيء آخر . . ولا بد من الاعتراض على الخطأ لتحريك النفوس نحو التصحيح .

ـ تعود الآيات بنا لنتابع مشاهد القصة :

ـ ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ إن هذا الخبر سيشعر النبي بشيء من الأسى وخيبة الأمل . . خاصة في نفس نوح الذي لبث يذكر قومه ويحاورهم سنين طويلة . . ولم يترك وسيلة إلا واستخدمها . . فالله يعزيه ويمسح على قلبه وينزل عليه عبارات حميمة حبيبة : ـ ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ ماأروع هذا التعبير . . لا تخف ولا تحزن فأنت في عين الرحمن محاطاً بحبه ورعايته . . ﴿ووحينا﴾ اصنعها بأمرنا مُعَلِّماً بوحينا لك كيف تصنعها . . هل كان الناس في ذلك الوقت لا يعرفون صناعة السفن بعد . . ؟

أم أنهم كانوا يعرفون لكنَّ نوحاً لم يمارس هذا العمل. . وهي سفينة غير عادية. . فاحتاج إلى تعليمه بالوحي. . وقد يكون الوحي هنا بالإلهام الذي يأتي نتيجة لإعمال الفكر والاجتهاد. . كل ذلك وارد والله أعلم .

ـ ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ تحتمل معنيين :

١ـ لا تراجعني في طلب الرحمة لهم فقد حق القول عليهم. . ويكون في ذلك تحذير لنوح الذي طلب النجاة لابنه بعد ذلك. . وجاءه الرد الحاسم .

٢ـ أو لا تخاطبني في استعجال عذابهم والدعاء عليهم فهم مغرقون في الوقت المناسب وقد دعا نوح على قومه ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح : ٢٦] فكأنه يقول : لا تكرر الدعاء .

ـ ولننظر في الآية وما ترمز إليه. . إن النبي يؤمر بصنع سفينة النجاة للجماعة المؤمنة. .

١)ـ إن للجهد الإنساني دوراً كبيراً في حل الأزمات والمشاكل والله لا يعين إلا المجتهدين .

٢)ـ كل مجتمع عليه أن يصنع سفينة نجاته كي ينجو من أخطار الحياة .

٣)ـ إن الأنبياء والمصلحين هم أول من يتصدى للعمل في صنع السفينة فهم القدوة .

٤)ـ إن سنن النجاة والهلاك حتمية لا مفر منها. . والعواقب تأتي في وقتها المحدد .

ـ ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ ولنا أن نتصور دهشتهم من نوح كيف أعرض عنهم وبدأ يصنع سفينته. . وقد

يكونون في مكان لا بحر فيه ولا نهر. . وما يمكن أن يصدر عنهم من سخرية. . (هل تركت ادعاء النبوة وأصبحت نجاراً يا نوح ؟. .)

- ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ يبدو أن إيذاءهم للنبي والمؤمنين قد جاوز الحد إذ ليس من أخلاق المؤمن السخرية من أحد . ولكن طغيان الكبراء (الملأ) واستمراءهم إيذاء المؤمنين بكل أسلوب يقتضي الرد المرعب الذي يحمل التهديد والتحذير ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ. . ﴾ ومن يضحك أخيراً. . يضحك كثيراً .

- وما أعجب موقف الجاهل الذي يسخر من العالم الذي يقوم بأسباب النجاة. . ! !

- إن مما يستوجب الضحك تشبثه بجهله وسخريته من الفاهمين . وكم رأينا أناساً يسخرون من الذين يتصدون لنشر العلم وتصحيح الأفكار. . زاعمين أن (السيف أصدق أنباء من الكتب) ولكن الأسلحة تنسحب اليوم من الميدان وتتخلى عن عبّادها كما يتخلى الشيطان عن أتباعه ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾

[إبراهيم : ٢٢] .

- وإن البصير العارف بسنن حياة الأمة يستطيع أن يتنبأ بما سيحدث من هلاك أو نهضة للأمة. . لأنه يرى نقاط الضعف ويقدر عواقبها في المستقبل. يقول رسول الله ﷺ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر « أي المطر »[١] وابن خلدون تنبأ بسقوط المشرق الإسلامي كما سقط المغرب (وانتقص عمران الأرض بانتقاض البشر. . . وكأني بالمشرق قد نزل به

---

(١) رواه مسلم .

مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة)[1] ولسان الكون هو قانون الله وسنته في حياة الأمم وسقوطها . وها هو نوح يتحداهم بعاقبة العاجلة :

- ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ وعاقبة الآجلة ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ جاء وقت عواقب الدنيا . . ويمكن أخذ الآية على الحقيقة : أي نبع الماء من الأرض حتى فار من التنور . أو على المجاز كما يقولون : بلغ السيل الزبى . . بمعنى اشتد غضب الله عليهم .

﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ هل القصد من كل الكائنات الحية زوجين ؟ الله أعلم . ويستثني من أهله ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ بأنه من الهالكين . ولا تذكر هنا زوجته مع أنه ضرب بها المثل في الكفر في موضع آخر .

﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ولا يهتم السياق بذكر عددهم .

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بإذن الله وحسب سننه وطالبين العون من الله بذكر اسمه عند الركوب وعند جريانها وعند رسوها . أو أنها تجري بأمر الله وترسو بأمره . ويلهج لسان نوح في هذه اللحظات العصيبة بالثناء على ربه معترفاً بكرمه مع عباده رغم تقصيرهم وذنوبهم مستنجداً برحمته التي وسعت كل شيء .

- ويشتد المشهد وهو يعرض علينا الطوفان الرهيب يتقاذف السفينة بين أمواجه : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ وفي سورة القمر يصف

---

(١) صفحة/ ٥٣ من الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون .

الطوفان بآيات قصيرة شديدة الوقع ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر : ١٠-١٤] .

وسط هذا الهول يلمح نوح أحد أبنائه في اليم يحاول النجاة ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عن قومه من الكفار وعن المؤمنين الذين ركبوا في السفينة . ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ولعل نوحاً طمع في إيمانه عندما رآه في معزل فدعاه .

ـ ولكن الابن يرد بصلف وغرور ﴿ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ الابن يواجه الموقف بطيش وجهالة . . بينما نوح يدرك سنة الله في الهلاك والنجاة ويهتف بابنه مشفقاً مُرَّوعاً ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ وإن طوفان النتائج لأعمال الأمة يجرف أمامه كل شيء ولا يُعصم منه أحد . . ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ يستدرك ويستثني وكأن ذرة من أمل تراود قلبه وتطفو على لسانه . . ولكن هزيم الأمواج يطغى على كل صوت وتبتلع الظلمات المشهد من جديد ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ .

ـ ما قرأت هذا المقطع مرة إلا وارتجف كياني . . وأشعر بالعجز أمام هذا التصوير البليغ بكلمات موجزة لهول الطوفان وهول النكبة التي عصفت في قلب نوح . . إنه يرى مصرع ابنه أمام عينيه . . فلا يكاد يصدق . . أحقاً مات ابنه كافراً . . ؟! أما من أمل في احتمال آخر يحمي ابنه من النار في الآخرة . . ؟ ! إن العواطف تتلاطم في قلبه كما يتلاطم الموج من حوله . . ولا تسكن هواجسه ولا يهدأ الصراع في نفسه طيلة أيام الطوفان فما إن انتهت المحنة وهبط مع المؤمنين إلى الأرض حتى هرع إلى ربه يناجيه ويبثه هاجسه .

ـ هذه العاطفة الأبوية الجياشة تجعلني أقف وأتساءل : هل بذلنا

ما يكفي لنجاة أولادنا في الدنيا والآخرة ؟! الأبوان يقلقان إن عزف الابن عن وجبة طعام.. فهل يهتمان بتأمين الصحة النفسية والنمو الفكري لأولادهما.. ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦].. ولكننا أحياناً نتصرف بعكس ذلك.. قد يدفعنا الخوف على المصالح المادية وإيثار سلامة الجسم إلى صد أولادنا عن دراسة آيات الله وإيقاف الدعوة إلى الله وتعليم الناس دون أن ندري أننا بذلك ندفع بالمجتمع كله إلى الغرق.. « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »(١) .

ـ وقد تجد من الآباء من يتنصل من المسؤولية ويستشهد بأن النبي نوحاً لم يهدِ ابنه.. ونحن نأمر أبناءنا وننهاهم لكنهم لا يسمعون.. وإنك لا تهدي من أحببت.. هذه الحجج لم تعد تنطلي علينا في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم الانسانية ونما فيه علم تغيير ما بالأنفس.. ولئن كان أسلوب نوح في نصح ابنه مبنياً على الأمر والنهي.. وكذلك كان اسلوب إبراهيم مع أبيه ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ ﴾ ولا تعبد الشيطان فإنهما بذلا جهدهما.. وبحسب الأساليب المعروفة لديهما . ولكن الله قال لنبيه ﷺ ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ فالعلم لا ينتهي والأساليب والوسائل تتطور.. ولا يكفي إخلاص الآباء بل لا بد من النصح بأفضل أسلوب كشفه العلم حتى الآن .

وقد وعدنا الله ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾.. فهذا الإنسان ستزداد مواهبه وقدراته بشكل يتفوق فيه على السابقتين وهنا من فضل الله ونعمته فلا يجوز أن نقيد أنفسنا بأساليب السابقين.

---

(١) رواه الترمذي .

وعلماء التربية الآن يقولون إن الأسلوب الفاشل المرفوض هو : الأمر والنهي (افعل ولا تفعل) . . ومثال ذلك : ما يقترحه صاحب كتاب (التربية الفعالة) من ممارسة : السماع الإيجابي مع الأبناء لمساعدتهم على الوصول إلى الصواب بأنفسهم عن طريق الاستماع باهتمام إلى عرضهم لمشاكلهم دون إعطاء حكم من الأب أو الأم . . وإنما بمساعدته على فهم شعوره (إذن كنت غاضباً من أجل كذا) وبلورة أحكامه (أنت تعتقد أن الحل في كذا وكذا) . وهو بحث جديد شعرت بأهميته[1] .

ـ أمر آخر أريد أن أقف عليه قبل أن نتابع قصتنا . . وذلك أننا نعيش الآن وسط طوفان التخلف . . طوفان ولا سفينة!! وأين الذين يهتمون بصنع سفينة النجاة ؟!

كثير من شبابنا قالوا : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِ ﴾ وهاجروا إلى أوربا و أمريكا وغيرها . . . ولكن لكل مجتمع أخطاره وطوفانه ولا بد من سفينة إنقاذ لكل أمة وإن نجوا في الدنيا فلن ينجوا في الآخرة « لا عَاصِمَ الْيوم من أمر الله إلا من رحم » .

ـ إن صنع السفينة يتم بأداء الواجبات الصغيرة اليومية . . بإلزام النفس بالاستقامة وترغيب الناس فيها ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ونحن كثيراً ما نحقر أنفسنا ونجهل قدراتنا :

(وتحسب أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر)

أيها الإنسان : إن الله قد سخر لك ما في السموات والأرض وحمَّلك الأمانة . ولولا أنك قادر على التسخير والقيام بالأمانة لما كلَّفك الله بذلك . . ولكنك اهملت نفسك ولم تستثمر مواهبك وقدراتك .

---

(١) صفحة ٣٣ من كتاب (التربية الفعالة) عبداللطيف الخياط .

أمر آخر أريد أن أعلّق عليه وذلك أنني سمعت من يقول أن الأبحاث الجديدة التاريخية والجيولوجية تحدثت عن طوفان جرى في الماضي حتى أنها استطاعت أن تحدد سرعة تدفق الأمواج فيه. . لكنها تقول أن الطوفان لم يعم الأرض كلها وإنما منطقة محددة ـ لعلها شرق البحر المتوسط ومنطقة البحر الأسود ـ وبعضهم يتساءل أين رحمة الله وهو يغرق الأرض وسكانها بعقابه ؟!

ـ أما القول بأن الطوفان قد شمل الأرض كلها. . فإن الآيات لا تنص على ذلك. .

وتحديد مكانه أمر متروك لأبحاث الإنسان. . على كل حال فإن المكان الذي يتحدثون عنه هو العالم القديم الذي عرفه الإنسان في ذلك الوقت. . فهو ارض ذاك الزمان .

ـ وأما رحمة الله : فإن الطوفان قد طهر الأرض من الشر والفساد وجرف معه بذور الحبوب ـ كما تقول أبحاثهم ـ إلى الأرض الجديدة لتزدهر الزراعة فيها والغلاّت إن الإنسان حين يتنكب الهداية يعيث في الأرض الفساد فيلوث البيئة ويخربها. .

وإن الله الرحمن الرحيم قد وضع للحياة الإنسانية قانوناً عادلاً رحيماً : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الرعد : ١٧] وإذا كان هذا التطهير يحدث في الماضي باسلوب المعجزات. . فإنه يحدث من بعد نزول القرآن بشكل سنني ﴿ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾ . والناس يتقدمون في هذا المجال ففي كل عصر ينبذون ما تبين لهم أنه زبد ويتقدمون للأنفع .

ـ ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ كفي عن إنزال المطر واسحبي غيومك ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ غاب في جوف الأرض ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى

﴿ٱلْجُودِيِّ﴾ قد تعني وقوف السفينة على جبل - أو منطقة - يقال له الجودي. . وقد تعني أن الأمور استقامت على الأجود. . والله أعلم. . ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ انظر إلى بلاغة الآية حيث تصف في أوجز عبارة ماحدث وخاتمة القصة مع العاقبة .

- ويسرع نوح بنجواه إلى ربه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وإنك لتعلم كم يوجعني هلاكه. . فهل لي أن أطلب أن ترحمني في ابني ومصيره. .

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾ إني أشهد أن وعدك بنجاة المؤمنين حق. . ولعل ابني ترك الكفار وخالفهم. . وأعلم أن حكمك في الناس هو الأعدل. . ما أروع هذه النجوى التي تعبر عن ألم كل أب أو أم مؤمنين فجعا بطيش أولادهما. . .

- ولكن علم الآباء بأبنائهم لا يقارن بعلم الله وسنة الله لا تحابي أحداً . و« يا فاطمة بنت محمد اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً »[1] . ولهذا يأتي الرد حازماً :

- ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ هذا الولد ليس من أهلك لأنه غير صالح - والإنسان في حقيقته عمل لأنه يحكم عليه بحسب أعماله فيقال : أنت نور وأنت عدل. . - أو أن المعنى : إن سؤالك هذا يانوح هو عمل غير صالح .

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ فأنت لا تعلم من يستحق الرحمة ممن لا يستحقها .

---

(١) رواه مسلم بلفظ « أنقذي نفسك من النار » .

﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الذين يجهلون سنة الله ويندفعون وراء عواطفهم .

ـ هذه التوجيهات فيها عبر كثيرة لنا :

١ـ عظمة عدل الله فلا تجابي سنته ولياً ولا نبياً . . حتى يُوجَّه محمد ﷺ إلى إعلان هذا على الناس ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ . . ﴾ [الجن : ٢٢ـ٢٣] .

٢ـ إن الدعاء هو مخ العبادة لكنه إن لم تراعى فيه الشروط الشرعية يصبح ذنباً .

وشروط الدعاء : أن لا تطلب شيئاً يخالف سنة الله ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ وأن لا تدعو بتحقيق أمر إلا وقد قمت بما تقدر عليه من أسباب تحقيقه . . أما دعاء الكسالى فمرفوض . . وانظر إلى المسلمين كيف يتضرعون ويبكون في ليالي القدر وهم قاعدون عن أداء الواجبات . . والله لا يعطيهم شيئاً . .

ومن شروط الدعاء أيضاً أن تطلب ما هو جائز شرعاً ولا تطلب الحرام . . ونحن كثيراً ما نضحك على اللصوص ـ في الأفلام العربية ـ حين يقولون : (ربنا يستر) !!!

٣ـ إن الأنبياء بشر ويمكن أن يخطئوا في اجتهادهم فلا يجوز تقديسهم ورفعهم إلى حد التنزيه عن الخطأ . . فإن الله وحده هو المنزه عن الخطأ . . وخطؤهم لا ينقص من أقدارهم بل يُقرِّب الناس من الاقتداء بهم . . فهم بشر مثلنا لهم مشاعرنا يفكرون ويجتهدون وقد يخطئون لكن الله يصحح لهم . . فيعودون إلى الله ويستغفرون .

ـ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ

أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هنا تجلى عظمة النبوة في الاعتراف بالخطأ والفزع إلى الله طلباً للمغفرة.. مع الإخبات لله وإدراك الحاجة الدائمة إلى رحمة الله مهما ارتقينا فلن نبلغ كمال الله..

- ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أعترف بقصوري أمام إشعاعات هذه الآية.. ماذا أقول..؟! سأحاول :

١- إن الأنبياء قد جاؤوا برسالة الله التي فيها تحقيق السلام والبركات للناس في الأرض .

٢- توجيه للنبي : ليكن هبوطك لتحقيق السلام والبركات للناس في الأرض واجتهد في ذلك .

٣- إن بذلتم جهدكم في هذا المجال حقق الله لكم أمانيكم واعطاكم السلام والبركات .

٤- السلام مطلب إنساني هام وهو مقدم على (البركات) لأنه سبب في حدوثها .

حتى أن أحد علماء النفس (ماسلو) يحدد هرماً للحاجات الإنسانية وفق درجات تبدأ من الحاجات البيولوجية وترتقي إلى أعلى المستويات وفق الرسم التالي :

(الرضى عند الذات) (تحقيق الذات) (الحاجة إلى الانتماء) (الحصول على الأمن) (اشباع الحاجات البيولوجية)

والقرآن يذكر قريش بنعمة تحقيق المرتبيتين الأولين ويحثهم على الثالثة (قبول المثل الأعلى) :

	الرضى عن الذات
	تحقيق الذات
﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ ←	الحاجة إلى الانتماء
﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ ←	الحصول على الأمن
﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ ←	اشباع الحاجات البيولوجية

إن تفاعل الإنسان مع مثل أعلى هو مرحلة الإقلاع لبناء حضارة وهو ما ذكره مالك بن بني في أبحاثه عندما استعرض عناصر الحضارة. . وقال : إن التفاعل بين العناصر الثلاثة (الإنسان+ التراب+ الوقت) لا يتم إلا بعد وجود مركّب هو الفكرة الدينية . والإنسان البدائي كان همه الأول هو إشباع حاجاته البيولوجية (طعام ـ شراب ـ ملبس ـ مسكن ـ الجنس) . لكنه لتحقيق الأمن اضطر إلى وضع قوانين وضوابط مع الآخرين. . وهي البداية في تحقيق الانتماء إلى مثل أعلى معين . ولكن المثل الأعلى الصالح هو الذي يوفر للإنسان تحقيق هذه الحاجات الخمسة دون حدوث تعارض أو صراع في نفسه .

ـ نعود إلى موضوع السلام في القرآن ودفع الناس إلى السلام ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] الذي يريد إبعادكم عن السلام .

وكيف وصف عباد الرحمن بالسلام في القول ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ولكن الناس حتى الآن ملهوفون على السلام. . ومازال الناس على ظن الملائكة الذين وصفوا الإنسان حين خلقه الله ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ؟

ولم يرتقوا إلى علم الله فيهم ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فالله يعلم ان

الإنسان سيترك الفساد وسفك الدماء . . ولكن لماذا لم يتحقق السلام حتى الآن ؟!

إن عالم الكبار قد حققوا السلام فيما بينهم وهو ما فرضته عليهم الأسلحة النووية التي أنذرتهم بالدمار الشامل إن لم يعودوا إلى مائدة التفاوض ويتحاوروا بالأخلاق . . . لكنهم لا يعبأون بتحقيق السلام للعالم الثالث . . بل إنهم حريصون على إذكاء الحروب فيه لتمرير صفقات السلاح وتحقيق السيطرة السياسية والاقتصادية لهم عليه . .

ويبقى السؤال موجعاً في عالمنا . . لماذا لم نحقق السلام حتى الآن ؟

ابتداء يمكن أن نقول : إن شريحة كبيرة من الناس في عالمنا لا تؤمن بضرورة السلام وما زالت تتلمظ للوصول إلى أحدث وأخطر الأسلحة كي تحارب الظالمين وتظن أن بالإمكان إنهاء مشاكل البشرية بحد السلاح . . وهي غائبة تماماً عما يجري في العالم .

ـ وطائفة أخرى لا يهمها السلام بقدر ما تهمها السلطة والمصالح الشخصية ـ شأنها في ذلك شأن العالم الغربي في نظرته إلينا ـ فهي تشارك عالم الكبار في جرمه ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ [القصص : ٤] وهؤلاء الطغاة موجودون في كل زمان ومكان وهم محبوسون في قوقعة(الذات) ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان : ٤٣] يعميهم الهوى عن رؤية مصالح الآخرين وعن الإحساس بالمسؤولية أمام الله . هل نقول : إنه مرض تورّم الذات ؟! وهو أمر يمكن أن يعالج بالتربية والتوجيه . . « لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] هذه الفكرة الجوهرية تعتبر قاسماً مشتركاً بين كل الديانات السماوية والمبادىء الإصلاحية التي كان لها دور كبير في حياة البشر . إنه تدريب

---

(١) رواه مسلم .

النفس على الوقوف في مكان الآخر والإحساس برغباته وفهم وجهة نظره . إنك حين تقدر على ذلك تقترب من العدل وتخرج من الظلم والبغي .

وقد قيل (إن الإنسان أقرب ما يكون معرضاً لارتكاب الحماقات حين يكون موقناً أنه على صواب) بحيث لا يسمع وجهات النظر الأخرى . وأذكر في هذا المجال كيف عزل عمر خالداً عن قيادة الجيش. . خوفاً عليه من طغيان الغرور. . وخوفاً على المسلمين من أن يجعلوا النصر مرتبطاً بخالد. . فيجعلونه (طاغوتاً) بعد ذلك . لأن الأخطاء الصغيرة الخفيفة تتراكم لتصبح (راناً) على القلوب . وعمر كان يتبع أساليب الوقاية من المرض والجميل في الأمر أن خالداً تقبل الأمر ولم تأخذه الحمية لنفسه. . لقد نجح في الامتحان لأنه كان يجاهد لله سواء كان قائداً أم جندياً . ومصلحة الأمة أهم عنده من نفسه .

ـ أما الفئة الثالثة : فهي راغبة في الأمن والسلام لكنها تجهل كيف تصل إليه مع الآخر أي أن مرضها هو الجهل بقوانين التعامل الانساني . ونحن نرى في كثير من الخلافات أننا نفشل في الإصلاح لأننا لا نعرف الكلمة المناسبة التي تؤدي إلى السلام .

ونحن ينبغي أن ندقق في حياتنا قبل أن نقفز إلى السلام في السياسة العالمية .

ـ وهنا أقف عند بعض المبادىء الهامة التي تساعد في التعامل الإنساني :

١ـ إن الأخلاق الإسلامية تمثل قواعد هامة في التواصل الاجتماعي السليم : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٥٣] ولكن المشكلة في اختيار التي أحسن!! هل هي المعارضة حتى

لا يستمر الآخر في الخطأ . أم هي المسايرة استمالة وتأليفاً له . . ؟! هذا ما تركه الله للإنسان ليكشفه . .

٢ـ لا بد قبل اختيار الموقف والكلام الصحيح من الاستماع للآخر جيداً . . فإن التبس عليك شيء فاسأل عنه وحاول أن تضع نفسك في موقع الآخر .

وفي الحقيقة قليل منا من يتقن مهارة الاستماع . . وإنما نتقن الاستئثار بالكلام .

٣ـ ثم عبر عما تريد أنت بوضوح . . وإن كثيراً من (سوء التفاهم) ناشىء عن الخلل في الاستماع والتعبير . ولهذا كان موضوع البيان هاماً جداً في القرآن . فيجب أن أتبين ما يريد الآخر ﴿ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء : ٩٤] . ﴿ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

وعليَّ أن أبيِّن ما أريد أنا ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [آل عمران : ١٨٧] وكثيراً ما يظهر بعد الشرح والبيان أن الخلاف كان في المصطلحات . . أو في عدم إدراك حاجات الآخر .

٤ـ لا تخجل من رفض ما لم تقتنع به . . لأن السكوت إقرار وهذا يُرجع اللوم إليك إذ لم تعترض أو ترفض . . وسكوتك يسبب لك الإزعاج وقد يؤدي ذلك إلى النقمة على الآخر والبعد عن التفاهم والسلام . لهذا جاء التوجيه القرآني مبكراً للضعفاء الساكتين في مكة ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق : ١٩] ولهذا كان من الضروري إعلان الاختلاف في الدين ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ رغم الإلحاح على الإحسان في المعاملة ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] . ولقد شهدنا أمراً عجباً في عائلة النبيِّ ﷺ فلقد

كانت العلاقة حميمة بينه وبين عمه أبي طالب رغم الاختلاف في الدين . . بسبب الالتزام بأخلاق الاختلاف . . ولا مجال للقول بأنها الحمية للأقارب لأن أبا لهب ناصبه العداء والأذى وهو عمه أيضاً .

٥ـ ولهذا ينبغي التمييز بين المعاملة الطيبة للآخر وبين الخضوع لآرائه . فلقد كانت قريش تؤذي رسول الله ﷺ بكل ما تملك من أساليب بينما هو يجهر بمخالفتها في دينها وفكرها ومع ذلك يدعو : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . ويعفو عمن تآمروا على قتله . . واذهبوا فأنتم الطلقاء .

ـ أعود إلى الآيات التي تحث على السلام وتعد بتحقيقه مع فتح الخيرات والبركات لأمم ممن مع نوح ـ ولا بد أنهم الذين اجتهدوا في التفكير والعمل لتحقيق السلام والبركات ـ ويستثني قوماً آخرين ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ في الدنيا بحسب ما بذلوا لها ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يكون عاقبة لظلمهم وإفسادهم في الأرض وكفرهم بآيات الله .

والكلام عن اصحاب السفينة ومن يأتي بعدهم من ذراريهم فهي سنة عامة للبشر .

ـ ويختم القصة بتعقيبات هامة جمعتها آية واحدة : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ بالنسبة لك ولقومك إذ لا علم لكم بهذه التفصيلات في القصة إن كنتم سمعتم من الآخرين عنها . فهو الوحي إليك ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ ولو كانوا يعلمون لاحتجوا وكذبوا بالآيات ولكن لم ينقل شيء من ذلك .

ـ ثم يقرر القاعدة والسنة التي تُعرض أحداث التاريخ كأمثلة على صدقها : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والقرآن يبدأ أحياناً بالقاعدة ثم يذكر أمثلة وبراهين عليها مثل ما جاء في أوائل سورة القصص :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾

[القصص : ٥] .

وأحياناً يبدأ من النماذج والأمثلة ليستخلص القانون بعد ذلك ـ كهذه السورة ـ وكل ذلك وارد في أساليب التعليم والنجاح في إدخال الموضوع إلى حيز الهضم .

ـ في القاعدة ـ التي نصت عليها الآية ـ ثلاث كلمات هامة : الصبر ـ العاقبة ـ التقوى . بل إن المتأمل يجد أن القاعدة توجز في كلمتين (العاقبة للمتقين) . ولكن النتائج العاجلة مضلِّلة وكثيرون يخدعون بها فلا تغرنك هذه . . وانتظر واصبر حتى تأتي النتائج النهائية . والتوجيه إلى الصبر ضروري فما من أمر في الدنيا يمكن إنجازه إلا مع الصبر . ولكن هل يولد الإنسان متحلياً بالصبر . . ؟! بل إنه يتعلمه من الحياة وكلما ازداد علمه ازداد صبره . . وهل يصبر الإنسان على كل مشقة ؟!

إنه لا يصبر ما لم يطمئن إلى أن العاقبة ستكون جيدة . . أما من يتحمل المشقة والأذى مستسلماً دون معرفة ودون أمل فيقال عنه ضعيف ذليل مستسلم ولا يقال عنه صابر . فالصبر نتيجة للعلم وسبب لمزيد من العلم أيضاً . والعلاقة بينهما جدلية كل منهما يؤثر في الآخر .

ـ هذا التوجيه للنبي ﷺ فيه تسلية له وتخفيف من معاناته وتعليم له وللمؤمنين بأن عليهم أن يتحلوا بالصبر والتقوى حتى تأتي العواقب . . فما هي التقوى ؟

يقول عبد القادر الجيلاني : إذا بسط ما في النفس على صينية وداروا بها على الناس فالمتقي هو الذي لا يتمنى أن يسحب شيئاً منها .

التقوى : إحساس برقابة الله في القلب يدفعك إلى فعل الطاعات وترك المعاصي

وأعلى منها الإحسان : الذي هو الزيادة على الفرائض وأداء الأمور على أحسن وجه .

والمتتبع لصفات المتقين والمحسنين في القرآن يمكن أن يلمس هذا الترتيب . ففي بداية سورة البقرة وصف للمتقين : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بينما يقول عن المحسنين ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات : ١٧-٢٠] .

هذه السنة (العاقبة للمتقين) هي للمجتمعات في الدنيا وللأفراد في الآخرة ومع ذلك فقد تنطبق على الأفراد في الدنيا . وهذا ما جعل غاندي يقول :

(عندما يتملكني اليأس أتذكر أنه على مر التاريخ كانت طريق الحق والحب وحدها الرابحة في النهاية . كان هناك طغاة وقتلة بَدوا لفترة كأنهم لا يقهرون . لكنهم في النهاية كانوا دائماً يسقطون . . دائماً) وتأملوا فس سقوط الجبابرة عبر التاريخ . . وعلوِّ ذكر المتقين .

ـ ولا أحب أن أترك قصة نوح قبل أن أعدد بإيجاز بعض ما نبهتنا إليه :

١ـ أدب الحوار مع الآخر : الحب والنصح ـ عدم الإكراه ـ عدم الرد على الإهانة والحرص على البيان .

٢ـ صفات الداعي التي اكتسبها من دعوته : التنزه عن الأجر ـ خفض الجناح للضعفاء والشعور بالمسؤولية تجاههم ـ التنزه عن الدجل والادعاء والوعود بالعطايا وتملق الآخر .

٣ـ الأفكار الجديدة التي قاومها قوم نوح :

١ ـ الخروج من عالم الأشخاص إلى الأفكار .

٢ ـ إلغاء الفروق الطبقية وانصاف الضعفاء .

٣ ـ حرية الرأي والدين لكل إنسان .

٤ ـ أن مخالفة أمر الله تستوجب عذاب الدنيا والآخرة . (حتمية العواقب الوخيمة لمن يخالف السنن)

٤ـ لا بد من توظيف الحماس في بناء سفينة تعصم المؤمنين من طوفان عواقب الفساد .

٥ـ لا يجوز الدعاء بما يخالف سنن الله .

٦ـ التبرؤ من ذنوب ذوي القربى لا يعني انعدام الحب والرحمة .

٧ـ أُمر الأنبياء وأتباعهم بتحقيق السلام على الأرض . ولا بد من الاجتهاد في كيفية تحقيقه .

٨ـ العلم يناصر الدين في دفع الإنسان نحو السلام حين أثبت عدم جدوى الأسلحة .

٩ـ من اجتهد في تحقيق السلام أعطاه الله إياه مع ثماره وهي البركات في الأرض . (وقد أصبح معروفاً ما تسببه الحروب والأسلحة من دمار في الأرض والبيئة والهواء)

١٠ـ من سنن الاجتماع أن العاقبة للمتقين لأنهم صنعوا سفينة النجاة .

١١ـ أهمية الصبر وكونه ثمرة للعلم فلا يخدع العالم بالعاجلة .

ـ أخيراً أقول : إن التفسير المادي للتاريخ يهمل كلياً دور الأديان في حركة التاريخ . .

والقرآن يعرض علينا سقوط الأمم كعاقبة للتردي الفكري والأخلاقي (أي الديني) ولا أريد أن أدخل في جدل الإنسان والمادة أيهما أولاً . . ولكن المادة ووسائل الانتاج لا تتطور إلا بيقظة الإنسان وهذا مرتبط بالدين والفكر .

ـ ومرة أخرى أردد قول الله تعالى ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ ﴾ فإنها الماء النمير لنا عند العطش إلى الأمان والسلام نقلب الطرف في عالمنا الإسلامي فلا نرى إلا الدماء والأسلحة المشرعة . . وحتى لا تتنصل المرأة من المسؤولية أحب أن أذكّر بكلام المفكر جارودي في كتابه (نحو ارتقاء المرأة) عن غياب المرأة (بما معناه) : (إن غلبة الطابع الذكوري على المشهد الإنساني حتى الآن هو الذي أنتج الصراع والعنف والحروب . . والعالم ينتظر حضور المرأة وقيامها بدورها كي تصبغ المشهد الإنساني بالحب والحنان والسلام) .

المرأة هي صانعة الأجيال وعليها أن تزرع الحب والحكمة والرغبة في السلام في النفوس . . أنت يا أختي المؤمنة التي تعلمين الإنسان كيف يخرج من الطغيان ويدخل في توحيد الله . . وإن العالم محتاج لاكتشاف قوة الضعف المتمثل في رفض الخضوع لغير الله دون اللجوء إلى العنف . . ولا يكفي ألا تحمل السلاح ولكن عليك ألا تستعبد أمام السلاح . . فلا تخضع . . وإلا كنت عبداً للقوة وظننت أنك لن تكون حراً إلا إذا ملكتها لتدافع عن نفسك . . ولا ننسى أن الأنبياء لم ينجرفوا في متاهة الدفاع عن النفس بل هتفوا دائماً : « أحبوا أعداءكم »

* * *

٢ ـ قصة هود :

ويمضي القرآن في عرض نماذج لأقوام كانت لهم ثقافات قديمة تحتاج إلى تجديد وكيف سعى الأنبياء إلى التجديد بثورة دينية (ثقافية) كي يتمكن الإنسان من التقدم والارتقاء في التسخير. . ولا يتم التسخير حتى يتحرر العقل من الدجل والتقاليد البالية. . لابد من نبذ الطواغيت والعودة إلى الله قبل كل شيء .

في رواية عن ابن عباس أن هوداً أول من تكلم بالعربية فهو أول رسول لأول أمة من ولد سام بن نوح ـ وهذا أمر متروك للبحث العلمي قد يقره أو لا يقره. .

وأما قومه عاد فقد كانت منازلهم بالأحقاف وهي بين عُمان وحضرموت .

ـ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أخاهم : توحي بالأنس والقرب ومشاركتهم المصير .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ وتدور القصة وفق نفس المخطط تقريباً .

وعناصر الدعوة واحدة مع تقديم وتأخير :

دعوة هود

ـ ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

ـ ﴿ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

ـ ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ. . ﴾

ـ والنقطة الثالثة ذكرت في دعوة القرآن ولم تذكر في دعوة نوح. . هل

لأن عذاب قوم نوح كان بالمطر والطوفان ؟

فلم يربط نزول المطر بتوبتهم . . ؟! ربما .

ولعل العرب وعاد كانوا أحوج إلى المطر من قوم نوح لمعاناتهم من الصحراء والله أعلم .

ـ ﴿ يَٰقَوۡمِ ﴾ أنا منكم وأنتم مني ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ ﴾ فكيف تتوجهون إلى من لا يملك لكم من مصيركم شيئاً ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴾ إن هذا كذب وافتراء . ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ ﴾ ليست لي مطامع في أموالكم ولا أريد منكم جزاءً ﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ ﴾ أطلب وجه الله الذي خلقني ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ؟!

ألا تربطون الأسباب بالنتائج والخلق بالخالق الحقيقي ؟! ألا يدلكم إصراري على نصحكم دون أن أقبل منكم أجراً على نبوتي وصدق دعوتي ؟!

ـ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ من الافتراء والكذب . . لقد بنيتم حياتكم على الافتراء حين ظننتم ان الحياة يمكن أن تزدهر بدون عبادة الله ومراعاة سننه . .

وهل للمجتمع القائم على الكذب والرشاوى و(الواسطات) بقاء أو نمو . . ؟! إن من يمشي دون أن يحسب لسنن الله حساباً يرتطم بها و تحطمه . . ومجتمع الزور والبهتان يوشك أن يقع فتداركوا أمركم بتغيير الفكر والقول (وهو الاستغفار) وتغيير الأعمال وتصحيحها (وهو التوبة) .

ـ وإن من لا يقدر على الاعتراف بالخطأ لا يقدر على سماع النقد ولا يستطيع التوبة والحكيم ليس الذي لم تكن له أخطاء بل هو الذي تعلم من

أخطائه ومن أخطاء الناس أيضاً . ولا بد من ترويض النفس على الاعتراف بالخطأ دون أن تنهار . .

فأنت إنسان ولست إلهاً . . وتقبل الذات يعطي صحة للنفس ونضجاً .

انظر إلى رسول الله ﷺ كيف كان يستغفر في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة . . !!

ـ أما علاقة الاستغفار والتوبة بنزول المطر فأمر جدير بالنظر والتأمل . .

وقد أصبح معلوماً الآن أكثر من ذي قبل العلاقة بين أخطاء الإنسان وانحباس المطر . . إن الأراضي القابلة للزراعة في عالمنا تتصحر بسبب إهمال الزراعة وقطع الأشجار التي تعدل الطقس وتجذب المطر . . وكثير من الدول الأفريقية التي تعاني من الجوع والجفاف انشغلت بالحروب الأهلية وشراء الأسلحة عن حفر الآبار وزرع الأرض وتحلية المياه . . لابد أن نراعي سنة الله في إنزال المطر . . فنتوب عن الكسل وتخريب البيئة وقطع الشجر ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ فإن عمل الله يأتي بعد أن يقوم الإنسان بالسبب . . والتوكل الحقيقي أن تقوم بما عليك أولاً ثم تسأل الله وتأتي النتائج من الله سخية مباركة : ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ وقد ذكر في مواضع أخرى من القرآن أنهم كانوا ليس كسائر البشر ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر : ٦-٨] فيعدهم الله بزيادة القوة . ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ إن الاعراض عن الله إجرام . .

ـ ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ توحي لنا الآية لأول وهلة بصعوبة فهم الفكرة الجديدة الغريبة عن الثقافة السائدة . فهم يقولون : ما فهمنا عليك

وما بينت لنا . . ولكن المسؤولية ليست على الدعاة وحدهم . . ألم يقل لهم قبل قليل ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ؟!

إن من يطلب أن تقدم إليه الأمور جاهزة لن يبلغ النضج ولن يقدر على استغلال مواهبه . . وكيف نحلم بنهضة ونحن لا نعرف إلا المطالبة بالحقوق ؟!

ـ يقول عبدالعزيز القوصي : (رأيت بعيني أفاعيل الاستعمار في بعض البلاد العربية . رأيته يهيء للناس حياة أغلبها حقوق وأقلها واجبات بحيث لا يعتمد الناس على أنفسهم وإنما يظلون عالة على غيرهم . رأيته يبث سمومه بين الناس بحيث يوقف نمو الشعب من حيث اكتمال النضج . وأهم مبدأ أقرره هنا هو خطورة تركيز المسؤولية في جهة واحدة)[1] إنه يقرر بأننا محتاجون إلى طريق الأنبياء : طريق الواجبات ولعلهم يقصدون بالبينة : المعجزة . . والبشرية في طفولتها كانت تؤمن بالمعجزات المادية المحسوسة . . وقد لا حظنا في دعوة هود أنه لم يتطرق إلى ذكر الآخرة بل حدثهم عن عالمهم المحسوس . . وكذلك في قصة نوح لم تأت سوى إشارة سريعة ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وهي لاتنص صراحة على الاخرة مثل ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ . . فلعل ذلك كان لأن العقل البشري منصرف عن الغيب إلى المحسوس .

ـ ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ يعلنون تشبثهم بالثقافة التي درجوا عليها . . وإن تغيير الثقافة لأمر صعب خاصة على من ألغى عقله .

---

(١) كتيب : تربية الشعور بالمسؤولية عند الأطفال من السلسلة النفسية . لعبد العزيز القوصي .

- ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ إنه الفكر البدائي الخرافي.. يقولون عنه إنه أصابه مس من الجنون بسبب لعنة الآلهة.. وما زال في عالمنا أناس يفكرون على نفس الشاكلة.. فيظنون أن بعض الأولياء - سواء أكانوا أمواتاً أم أحياءاً - يملكون صلاحية إصابة الناس بالمس والأذى..

- ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ﴾ ما أروع هذا الموقف في التعبير عن قوة الحق في النفس الإنسانية.. يجهر بالحق ويعلن براءته من الشرك والشركاء.. ويشهد الله ويشهدهم أيضاً على ذلك .

وإنه في هذا الموقف يدرك أنه استقطب عداوتهم لكنه يقف أعزلاً وحيداً مستعداً لتقبل كل ما يصدر منهم من تدبير وكيد وأذى :

- ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ لا تتأخروا في التدبير ولا تعطوني مهلة للمراجعة ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ فهو ربكم ولو أنكرتم وتنكرتم وكفرتم وأعرضتم فهو ربكم الذي يرزقكم ويتكفل بكم وأمركم بيده ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وأنتم من جملة من دب على الأرض ومصيركم إليه .

- هذا الموقف الرائع وقفه نوح من قبل حين قال لقومه : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] . وقاله كل الرسل لأقوامهم حين كذبوا بهم ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ ﴾

[إبراهيم : ١٢] .

إنه الإعلان السلمي على الملأ بكل شجاعة : إنني أخالفكم في الدين

وأبرأ إلى الله من الشرك والشركاء. . دبروا ضدي ما تشاؤون واجتمعوا على ذلك وافعلوا بي ما تريدون ولا تعطوني مهلة فإني متمسك بديني وبما آمنت بصحته ومتوكل على الله الذي لا يحدث شيء في هذه الحياة إلا بإذنه. . ومستعد لتحمل الأذى في سبيله .

ـ جمع الأنبياء في هذا الإعلان كل أخلاق الاختلاف الذي لابد من حدوثه لتجديد الحياة وتطويرها :

١ـ الجهر بالمخالفة دون تملق .

٢ـ عدم تحقير الآخر أو تهديده .

٣ـ إبداء الاستعداد لتحمل الأذى .

٤ـ عدم مقابلة الأذى بالمثل .

ـ ويتابع في نصحه وبيانه

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إن دين الله هو الصراط المستقيم وهو أقصر وأسهل وأوفر طريق يؤدي إلى الهدف . إنه اقتصادي وفعال يوفر عليكم الوقت والجهد بينما ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٢٧] .

إن طريق الله هو طريق آياته وسننه في الآفاق والأنفس فمن كشف السنة أو (القانون) تمكن من التسخير. . وأمسك بالمفتاح. . فهو الذي على الصرط المستقيم . لكن المسلمين الآن يتخبطون في التيه. . يرددون في صلواتهم ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ لكنهم جاهلون بالسنة عاجزون عن التسخير. . غافلون عن قول الله ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . فأنى يستجاب لهم. . ؟!

ـ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾ لقد أديت واجب التبليغ. .

﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ سينحيكم الله جانباً ويأت بغيركم لأداء دور الخلافة في الأرض فهو الغني عنكم ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ .

ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ جاء وقت عواقب الأعمال. . ولكل أجل كتاب وموعد . إن الأعمال تتراكم فوق بعضها حتى تأتي القشة التي تقصم ظهر البعير .

﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ والنجاة من عواقب الدنيا تأتي برحمة من الله لأن نتائج الدنيا تأتي جماعية ويعم البلاء على الصالح والطالح . أما في الآخرة فالنتائج فردية ومع ذلك فإنها مليئة برحمة الله أيضاً . .

ـ ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هل هي إشارة إلى النجاة من عذاب الآخرة أيضاً . . ؟

ـ ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ يأتي التعقيب على القصة فكأنه يلتفت إلى القارىء ـ أو السامع المشاهد ـ انظر تلك هي عاد التي جحدت بآيات الله وتنكرت لها ﴿ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ بدلاً من اتباع النبي الذي كان رحيماً رفيقاً ناصحاً لهم .

ـ ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ من كل الجيال التي تدرس آثارهم وتقرأ قصتهم ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ يفضحون على الملأ ويصدر قرار حرمانهم من القرب من ربهم ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ فيا له من قرار رهيب . . !!

ـ عندما نعود بنظرة شاملة إلى قصة هود التي شغلت نصف مساحة قصة نوح تقريباً . . نجد أنها وإن اتفقت مع قصة نوح في أسس الدعوة ولغة الحوار مع المخالفين . . لكنها لم تدخل في تفاصيل كثيرة . . كالحديث

عن الضعفاء والتمييز الطبقي . . لكنها أبرزت موقفاً متألقاً لم يشر إليه في التي سبقتها . . وهو موقف الجهر السلمي بالحق والصبر على الأذى دون محاولة الرد بالمثل . أي رفض الإكراه من الآخر ورفض إكراه الآخر . وهو مبدأ عظيم في الرقي الإنساني سبق إليه الأنبياء في الماضي وكان سبباً هاماً في نجاح دعوتهم . لأن كل أمر تم بالإكراه مكروه ومرفوض . . والعالم يتقدم نحو هذا المرتقى بإذن الله .

٣ ـ قصة صالح :

وتمشي وفق نفس المخطط الأساسي مع بعض الفروق : ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًاۚ ﴾

قَالَ يَـٰقَوْمِ : ١ ـ ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥۖ ﴾

٢ ـ ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

٣ ـ ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ .

ـ الدعوة هنا مختصرة في آية واحدة : نصت على ثلاثة أفكار أساسية الثانية منها جديدة ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أخرج من الأرض إنساناً حياً عاقلاً ذا قدرات هائلة وفي ذلك عبرة لكم لتدركوا كنوز هذه الأرض وتستثمروها ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي طلب منكم عمارتها وهو دور الاستخلاف الذي كلف به الإنسان وهو العبادة المثلى لله سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] هذا هو المعنى الحقيقي للاستعمار . فانظر كم تتغير معاني المصطلحات . . ؟!

إن الدول الغربية في أوائل القرن العشرين دخلت إلى العالم الثالث ـ وإلى بلدان أخرى ضعيفة غيره ـ تحت شعار (الاستعمار) لتساعد الناس على بناء بلدانهم واستثمار ثرواتهم والتقدم بهم . . ولكن كان هذا

مجرد شعار رفعته لتتسلل وتسرق الثروات وتسيطر وتتحكم في الشعوب . حتى أصبحت كلمة الاستعمار تعني الاحتلال والاستغلال . . فلا تغرنكم الشعارات المرفوعة . . وقديماً قال العرب (كلام كالعسل وفعل كالأُسَل) - أي مثل رؤوس الحراب وما أجمل تحذير الغزالي من طلب المعاني من الألفاظ . . بل انظر إلى الأفكار والمعاني أولاً ثم أتبعها الألفاظ .

- ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ عن الخطأ والتقصير ﴿ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ بتصحيح الأعمال وأدائها حسب سنن الله ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ يتقرب إليكم ويلبي دعاءكم . . سبحانه . الدعوة هنا فيها تذكير بنعمة الله ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ وفيها لين وتودد . . فالله قريب حبيب مهتم بعباده يسمع نداءهم ويلبي دعاءهم .

- ولهذا نحس بالجفوة والاستغراب من اللهجة الحادة التي رد بها قومه ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ كنا نحترمك ونشعر أن لك رأياً نرجو عونه عند الأزمات . . أما الآن فقد سقطت من نظرنا وفقدت مكانتك بيننا . . ولم كل هذا الاستنكار والهجوم ؟!

﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ كيف تحقر آباءنا وكيف تريدنا أن نترك تقاليدنا وما ورثناه من أفكار وأساليب وأخلاق عنهم . . ؟!

- حقاً إن من يتجمد على ما كان عليه الآباء قد ألغى فكره ووجوده . . وفقد مبرر الحياة والحركة . وأصبحت حياته نسقاً مكرراً لا روح فيه .

فلماذا يعيشون إذن . . ؟! ليأكلوا ويتمتعوا كما تأكل الأنعام ؟! ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ وهنا أرى بعض الأمل وهو أنهم لم يؤكدوا يقينهم ببطلان دعوة صالح . . بل إنهم في شك وريبة ولعل هذا الشعاع من الأمل قد جعل صالحاً يتابع في البيان :

- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ كيف يمكن لمن جاءه برهان على أمر ما حتى تبين له بجلاء ورأى فيه الخير والرحمة.. كيف له أن يترك ما اقتنع به وارتاح إليه خوفاً من معارضة قومه.. ؟!

- ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ وهذا يوحي بأنهم حاولوا الضغط عليه ليترك دينه ودعوته. ولكن دين الله يشعر الفرد بمسؤوليته الفردية أمام الله ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٦] فإذا كان الأهل والعشيرة سيفرون منك يوم القيامة.. فلماذا تخضع لهم وتسايرهم في الدنيا ؟!

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤١-٤٢] وكما قال إبراهيم ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١] ولا يحدد في الآية الخسارة هل هي في الدنيا أم في الآخرة.

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ طلبوا معجزة فأرسل إليهم هذه الناقة العجيبة ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ إن دين الله فيه رعاية حتى للحيوان وصالح لم يطلب منهم أمراً معنتاً.. طلب أن لا يمسوها بسوء.

والقصة تأتي هنا مختصرة فلا نعرف سر الإعجاز في هذه الناقة.. وهذا ما يناسب السياق العام للسورة.. ويناسب الزمان الذي نزل من أجله القرآن.

- فإن العبرة أن ينتبه الناس إلى عدم جدوى المعجزات في إقناع الإنسان وتغيير سلوكه بعد أن خرج من طور الطفولة الفكرية.

﴿ فَعَقَرُوهَا﴾ كذبوا بها وأمعنوا في التحدي بقتل الناقة .

ويشبه ذلك ما نراه في عالمنا من تخريب واعتداء على البيئة . . « فعقروها » عندما فجروا القنابل الذرية فأهلكوا الحرث والنسل وأرهبوا الناس . وما زالت أمام الإنسان فرصة للاعتبار والعودة إلى سنن الله في الصلاح والإصلاح فلقد رأى بعض النتائج . . من العذاب الأليم . . وقد وصف هنا بأنه (عذاب قريب) .

﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ هل كانت هذه المدة مهلة للتوبة . . فضيعوها ؟! ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ العواقب حتمية في الدنيا فإذا قام بأسباب الفساد وقع فيه في الدنيا ولو تاب واستغفر . . لكنه قد يعفى من عذاب الآخرة إن صدق .

ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وحان وقت النتائج ﴿ نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ . إنها نفس العاقبة التي نالها هود ومن معه ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ لعلها إشارة إلى النجاة من الخزي في الآخرة أمام الناس والله والملائكة . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ .

ـ ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وهو صوت الصاعقة التي نزلت بهم . ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ يقال جثم الطائر والأرنب وهو كالبروك من البعير . وهو تصوير لهم في سقوطهم على الأرض (لعلهم على ركَبِهم) .

ـ ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ لسرعة زوالهم كأنهم لم يقيموا فيها أبداً .

ـ ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ وهو نفس القرار الرهيب الذي يُنادى به أمام الناس جميعاً إذ يُصدر عليهم الحكم بالحرمان من ربهم .

ـ هذه القصص الثلاثة رغم اختلافها في الطول والقصر وفي بعض التفاصيل إلا أنها مشت في مخطط واحد تقريباً. . بينما تأتي القصتان التاليتان مختلفتان :

قصة إبراهيم وما يعرض منها هنا لا يتعلق بدعوته مع قومه . ثم قصة لوط التي تتركز على الفاحشة التي اشتهر بها قومه . ونمشي مع الآيات نكتشف المغزى .

٤ ـ قصة إبراهيم :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ .

يقول صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآيات : [يلم السياق في مروره التاريخي بالمستخلفين من عهد نوح وبالأمم التي بوركت والأمم التي كتب عليها العذاب يلم بطرف من قصة إبراهيم تتحقق فيه البركات في الطريق إلى قصة قوم لوط الذين مسهم العذاب الأليم وفي قصتي إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه. . . .]

وهو تعليل لطيف لاختلاف نسق قصة إبراهيم عن باقي القصص فكأنها تعرض نموذجاً في أسرة إبراهيم التي ترفل بالسلام والبركات. . وفي الأمم من ذريته التي مشت على هديه . وقد ذكر إبراهيم في أربع وعشرين سورة من القرآن . عرضت فيها مراحل متعددة من حياته . أما هنا فاللقطة قصيرة وتدور حول محورين :

١ـ الملائكة تبشر إبراهيم وامرأته .

٢ـ يجادلهم في قوم لوط ولكن أمرهم انتهى .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ فيما يبدو أن الملائكة جاءت على هيئة أضياف ولم يبادروا بتبليغ البشارة ولكن بادروا بالسلام ﴿ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾ ذكر المفسرون أن الرفع أبلغ من النصب فقد حياهم بأحسن من تحيتهم . وشخصية إبراهيم كما يرسمها لنا القرآن كريمة مضيافة لينة عطوفة مع ثبات وقوة في الدين . واسرع إبراهيم في إكرام أضيافه ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي مشوي بالحجارة المحمية وهو أنظف وأطيب من المشوي على النار . وهذا الإسراع يوحي بأن أهل البيت متعودون على إعداد الطعام مسبقاً توقعاً للضيوف .

ـ ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ فوجىء بعدم إقبالهم على الطعام واستنكر هذا الموقف ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ الوَجْس : الصوت الخفي ويطلق على ما يعتري النفس من الشعور والخواطر علد الفزع . لماذا حصل في نفسه هذا التوجس منهم ؟!

لأن الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة أو قصد سيء ومن الشائع عند الناس ـ عندما كان في الناس أخلاق ـ التحرج من خيانة من أكلت من طعامه (يقولون : بيننا خبز وملح) . فلما ظهر عليه الاستياء والتوجس.. طمأنوه وكشفوا عن حقيقتهم والمهمة التي جاؤوا من أجلها : ﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ وهو ابن أخ لابراهيم انفرد عنه بعياله إلى بلد آخر فمكث مع أهله زمناً حتى أطلق عليهم (قوم لوط) مع أنه في الأصل ليس منهم .

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ ﴾ حاضرة وقائمة على إكرامهم وتفقد حاجاتهم. وهو أمر لافت للنظر أن تشارك زوجة نبي زوجها في استقبال الأضياف والقيام على إكرامهم.. وسماع الحديث والمشاركة فيه.. بينما مرت

على المسلمين حالات من التشدد جعلتهم في بعض المناطق يقسمون بيوتهم إلى قسم للنساء وقسم للرجال . .

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ ﴾ قيل سروراً بالأمن من الخوف وقد عرفت أنهم ملائكة وقيل سروراً بقرب عذاب قوم لوط لكراهيتها لأفعالهم .

ـ ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ بشرناها بواسطة الرسل بأن ترزق بابن ثم حفيد . ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ ﴾ في ذلك العصر كان حدوث ذلك يعتبر معجزة . . ولكننا في عصر كشف سنن الحمل والانجاب ومارس (أطفال الأنابيب) و (الاستنساخ) . . فالمعجزات أيضاً لها سنن عرفها من عرف وجهلها من جهل . . ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴾ .

ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾ ؟! وهو فاطر السموات والأرض وخالق الإنسان من غير أبوين . ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾ إنه دعاء بمعنى التحقيق فقد منحكم الله الرحمة والبركات ﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ مشكور دائماً لإنعامه بمالا يعد ولا يحصى . . مجيد دائم المجد مذكور بالإجلال والتعظيم . لا حدود لقدرته وعلمه .

ـ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾ بمجرد أن اطمأن إلى حقيقة أضيافه تحول إلى موضع قوم لوط وقد صعب عليه إنزال الهلاك بهم وأخذ يجادل في إمهالهم (يجادلنا) كان يجادل الرسل ولكن الرسل ينفذون أمر الله فكأنه يجادل الله . ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ حليم لا يحب التعجيل بالعقاب . أواه : كثير التأوه والتألم لما يسوء ويؤلم . منيب إلى الله مذعن لأمره .

ـ هذا القلب المحب المفتوح تميز به إبراهيم عليه السلام وكان محمد ﷺ أشبه الناس به فقد رفض إهلاك قومه عندما عرض عليه مَلَك

الجبال ذلك أثناء عودته من دعوة أهل الطائف وتحدثنا السيرة أنه ﷺ استشار أصحابه في أسرى بدر ماذا يصنع بهم . فأشار أبو بكر بقبول الفداء منهم وعسى الله أن يهديهم . وأشار عمر بأن يقتل كل واحد قريبه منهم . فقال ﷺ « إن الله ليليِّن قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال ﴿ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[1] وروي أنه ﷺ قال لأشج عبدالقيس « إن فيك لخلتين يحبهما الله عز وجل : الحلم و الأناة »[2] لِمَ قال له ذلك ؟ يشرح ذلك أول الحديث الذي يروي أن الأشج جاء مع وفد قومه (عبد القيس) فلما رأوا رسول الله وثبوا من رواحلهم فأتوه . أما الأشج فقد نزل وعقل راحلته وأخرج ثوبين أبيضين نظيفين فلبسهما ثم أتى رواحلهم فعقلها ثم أتى رسول الله ﷺ . فالحلم هو الصبر والأناة فيها الاتقان في علاج الأمور .

ـ والمشكلة أننا بحاجة إلى اللين والشدة ولكن كل في مكانهِ ووقته المناسب ولا يتصف بذلك إلا من أوتي الحكمة ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] والله العليم الحكيم لا يهلك إلا عندما يصبح الهلاك هو الحل الأمثل . . ونذكر قول

---

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه مسلم .

أبي بكر وقد ضربته قريش مرة بعد إسلامه(رب ما أحلمك) . وليس أحلم من الله تعالى : يجعلون له أنداداً وهو يطعمهم ويسقيهم (كما ورد في حديث)

- ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ﴾ لا مجال للنقاش والجدال في هذا الأمر الذي حسمه الله لصالح البشر ولصيانة حياتهم العضوية والنفسية والاجتماعية . وقد كشف الناس في هذا العصر ضرر هذا الانحراف عضوياً . . وهو (الايدز) طاعون العصر . . وما هو إلا غيض من فيض . ﴿ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ لأنه ناتج عن مخالفة سنن الله ويسدل الستار على إبراهيم ليكشف عن مشهد حافل بالتوتر والحركة .

٥ ـ قصة لوط :

- ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾
جاء في سفر التكوين من التوراة أن لوطاً ابن أخ لإبراهيم هاجر معه من مسقط رأسهما (أور الكلداينين) في العراق إلى أرض الكنعانيين . وسكن إبراهيم في أرض كنعان . ولوط في مدن الأردن في سدوم وتليها عمورة وإنما افترقا اتقاء اختلاف رعيانهما . ويظن الكثيرون من الباحثين أن بحيرة لوط (البحر الميت) قد غمرت موضع سدوم بعد الخسف . . والله أعلم .

يفاجئنا لوط بهذا التوتر والانزعاج لرؤية هؤلاء الأضياف . . ؟! إن عرض القصة مليء بالإثارة . . وموقف لوط تفسره الآيات بعد ذلك . فلقد استاء من نزول هؤلاء ضيوفاً عليه لأنه ظنهم من البشر وعرف أن قومه سيعتدون عليهم ولن يفلح في حمايتهم إذ هو وحيد وليس لديه من

ينصره . فقال ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ مشتق من العَصْب أي الشد . . أي أنه يوم شديد الأذى .

ـ ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ لم يكد يرحب بضيوفه ولم يعرف حقيقتهم بعد حين أسرع قومه إليه يطلبونهم وقد أفقدهم الشبق كل صواب . . هنا نجد حالة عجيبة . . أمة بكاملها تأتي الرجال شهوة وتجاهر بذلك في أنديتها . . قد تحدث في كل أمة حالات فردية شاذة من هذا النوع ولكن هنا صار المرض جماعياً يمثل تياراً جارفاً فتاكاً . . وهذا بؤكد أن المرض النفسي إذا لم يعالج يُعدي كالأوبئة . . ولقد سمعنا أنه قد صار لهؤلاء الشواذ جنسياً نوادي خاصة في أوربا ولهم حقوقهم واعتبارهم وهم يمارسون حريتهم!!! رغم ما كشفه العلم من تسببهم في انتشار مرض (الايدز) . . !! فماأعجب هذه الحرية . . !!

ـ ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة من برد أو غضب أو حمى (وصاحب تفسير المنار يقول : وينبغي أن يزاد عليه أو شهوة شديدة)

القرآن يتحدث عن قضية هامة ينبغي التصدي لدراستها وعلاجها ولا يجدينا تجاهل الأمر وإسدال ستار العيب عليه (كالنعامة تخفي رأسها كي لا ترى الخطر) . . إن السكوت عن التوعية الجنسية ينتج الكبت . . بل ويثير فضول الناشئين لاكتشاف هذا العالم المليء بالأسرار والإثارة . . خاصة وأن وسائل الإعلام تحرك الأمر بجرأة عجيبة وإغراء رهيب وكأن الإثارة أحد أهدافها . إن سكوت الأبوين عن بحث هذا الموضوع مع أولادهم أمر مرفوض وشديد الخطر . . لأن الأولاد سيلجأون إلى الكتب الرخيصة و رفاق السوء لكشف خبايا

عالم الجنس المثير . . ولابد من تزويد الأبوين بثقافة جنسية واعية قادرة على إعطاء اللقاح للجيل الناشيء ضد الأمراض في هذا الجانب .

ـ والقرآن يطرح موضوع الجنس بصراحة وأدب وموضوعية . . والطفل لا بد أن يمر على قصة قوم لوط . . وقصة امرأة العزيز في إغوائها ليوسف . وستمر به الايات التي تصف المؤمنين بأنهم (حافظين لفروجهم) وآيات سورة النور التي تصدت للزنا وحددت عقوبات للفاعل والقاذف . وعلى الأبوين المسلمين أن يقربا الموضوع إلى ذهن الطفل ويشرحا له الأمر علمياً . . وقد كُتبت في هذا المجال كتب تساعدهما على أداء هذا الدور . ولا بد من إيجاد جو مليء بالحب والثقة والانفتاح بين الآباء والأولاد حتى يكون الآباء مرجعاً وملاذاً للأولاد في كل ما يعرض لهم .

وكم سمعت عن صبايا تعرضن للتحرش والاعتداء ـ وأحياناً منذ طفولتهن ـ ولم يتجرأن على الحديث في ذلك للأم أو الأب . . لأن الجسور مقطوعة مع الأبوين . . وعالم الجنس معجون بالعيب والرهبة فلا يمكن للناشىء أن يفاتح أبويه بالحديث فيه .

ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ لا أجد فدائياً مثل لوط عليه السلام . . لقد فكر بعلاج الموقف بأن يعرض على قومه الزواج من بناته رغم مساوئهم حماية لأضيافه ودفعاً لوقوع هذه الجريمة الشاذة .

ولا نهمل ما قيل في التفاسير من أنه أراد بنات قومه ـ في أحد الأقوال ـ لأن النبي في قومه كالوالد في عشيرته . . ويبين لهم حلاوة الحلال ونظافته ﴿ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ من التلوث باللواط . . إن الشذوذ تلوث جسدي ونفسي واجتماعي .

ولعله أراد أن يوجههم في هذه الحال التي هاجت فيها شهوتهم أن

يأتوا نساءهم كما ورد في الإرشاد النبوي لمن رأى امرأة أعجبته أن يأتي امرأته فإنها حصن له .

ـ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ نرى كيف يحاول لوط أن يستغل كل ما يمكن من أساليب لإنقاذ الموقف فقد لجأ إلى :

١ـ محاولة إيقاظ الفطرة السليمة عندهم بعرضه عليهم الزواج من بناته .

٢ـ إيقاظ الخوف من الله ورقابته ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ والحذر من عقوبته .

٣ـ ﴿ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ قالها لتلمس نخوتهم وتقاليد البدو في إكرام الضيف .

٤ـ ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ . . أين العقول ؟! لا يوجد واحد فيكم يحرك عقله ويدرك الصواب والرشاد في الأمور ؟! هذه كبرى المشاكل . . لأن الأزمات والأخطار لا تواجه بالعواطف والشهوات . . ولا يقف في وجهها إلا الرشاد . وكما يقول العوام (إذا جلست على رقبة الفاهم فلن تقع) . الرشد يرفض الظلم والإكراه ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] الرشد يهتدي بالعواقب فيختار ما فيه الخير والأبقى للأمة . . وهو طريق الإسلام لله وسننه ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٤] الرشد هو الامتياز الذي منح للإنسان دون سائر الخلق فما قيمة الإنسان حين يتخلى عن هذا الامتياز . . ؟!

حقاً إنه الانتكاس الكبير الذي يسلب الإنسان معناه واستخلافه في الأرض وقدرته على التسخير . وما أشد المعاناة عندما تعيش في أمة تحتاج إلى ترشيد في جميع جوانب حياتها . . ليس فقط في استهلاك الماء

والطاقة.. الترشيد في الكلام والتعامل مع الآخر.. الترشيد في إعطاء الأولوية لحاجات الأمة الضرورية..[1] . الترشيد في حل النزاعات . لقد عبر لوط عن مأساتنا ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ ولا بد للأمة من العدد الكافي من الراشدين لحفظ توازنها .

ـ تحاول أمريكا إغراء اليابان بتصنيع الأسلحة أو شرائها ولكن اليابان ترد بلباقة بأنها ملتزمة باتفاقية نزع السلاح.. ذاك هو الرشاد في هذا الجانب .

إن الوصايا الأخلاقية التي جاءت بها الديانات السماوية إنما يدرك قيمتها الإنسان الرشيد ولوط يطمع في إنسان واحد رشيد.. لأن الرشيد لا يقول أمام المشاكل (مايطلع بيدي شيء) بل إنه يُعْدي الآخرين برشاده.. وصحة الفكر تعدي خلافاً لصحة الأجسام .

ـ ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ قد يكون القصد هنا : مالنا بهن من حاجة أو : قد علمت الذي لنا في زوجاتنا ـ بناتك ـ من حقوق الزوجية.. فنحن لنا زوجات ولكننا لا نريد هذا الأسلوب فلا معنى لعرضك الزواج من بناتك .

أو : قد عملت أنه لا يحق لنا الزواج من بناتك في دينك.. فهم يدركون أنهم آثمون لا يستحقون هذا الفضل.. أو أنهم يستهزئون به كما قالوا في سور أخرى ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] ولا تجوز لنا أن نخالط المتطهرين.. ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ فلا تحاول صرفنا.. حقاً لقد بلغت بهم الوقاحة حداً عجيباً !! .

---

(١) تأمل ازدياد معامل (العلكة) في العالم الثالث بينما لا نجد المدارس والجامعات الكافية لاستيعاب شباب المستقبل .

- قال ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ قالها يتحرق حزناً وألماً لعجزه عن حماية ضيوفه.. وغاب عنه في غمرة هذا الكرب أنه يأوي إلى ركن شديد كما قال ﷺ « رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد »[1] .. إنها بشرية النبي.. فقد تفلت منه الرؤية السننية أحياناً تحت ضغط المعاناة .

- ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ بسوء في نفسك ولا فينا..

وعند ذلك طمس الله أعينهم فعجزوا عن رؤية لوط وضيوفه كما ذكر الله لنا ذلك في موضع آخر ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾

[القمر : ٣٧] .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ سر ليلاً.. وبكر في ذلك : يجزء من الليل.. ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ هل التحذير هنا من التفاته الإشفاق نحو البلد التي ينزل بها العذاب.. ؟! أم القصد : لا يشغلنكم عن أمر الله شيء.. ؟! كما قال الشاعر (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) فلا تدع عرض الدنيا يصرفك عن أمر الله .

- ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ﴾ وهذا يؤكد على المسؤولية الفردية وأن الإنسان قد يعيش ظروف الهداية في أسرته ومع ذلك يأباها . فالقدرة على الإختيار هي ميزة الإنسان عن سائر الخلق . وإن الظروف العائلية والاجتماعية قد تضغط وتؤثر ولكن الإنسان قادر على الاختيار ولهذا يحاسب على اختياره .

- ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ نشم رائحة الاستعجال من

---

(١) ذكره ابن كثير عند تفسير الآية .

لوط في نزول العذاب لأن الملائكة تطمئنه ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ؟! وهنا يختلف لوط مع إبراهيم . لكن إبراهيم ينظر إلى المشكلة من بعيد أما لوط فهو في قلب المحنة وهذا يستحق التأمل. . فكل موقف له ايجابياته وسلبياته .

ـ فالذي ينظر من بعيد قد يعجز عن تقدير المشكلة حق قدرها لافتقاره إلى المعاناة. . وبالتالي يعجز عن تصور الحل المناسب لها . ولهذا كان الأنبياء والمصلحون يعيشون حياة عامة الناس وما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم . كي يحسوا بمشاكل الناس ومعاناتهم . وكان غاندي زعيماً للهند بحق فقد رفض أن يعيش إلا كما يعيش فقراء الهند ويمشي المسافات الطويلة على قدميه حافياً . .

ـ وأحياناً يحدث العكس : إذ يعجز من كان في قلب المحنة عن رؤية السنة العامة التي تحكم حياة الأمم وتشغله الأمور العاجلة عن رؤية العواقب البعيدة للأمور. . وقد يصرف كل جهده في مشاكل فرعية آنية . . كمن تشغله(لقمة العيش) كلياً عن دراسة القرآن ومتابعة التطور الفكري الإنساني. . ويغفل عن سنة الله في التغيير ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ . . ﴾ [الأعراف : ٩٦] . وقد حدث لبني إسرائيل أن استهلكتهم المعاناة اليومية عن رؤية سنة الله فقالوا ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف : ١٢٩] . ولذا تعتبر دراسة التاريخ ضرورية جداً ـ وكم يلح عليها القرآن ـ لأنها تمنح الإنسان توازناً بين المعاناة اليومية وخط سير سنة الله في الكون .

ـ ومن ذلك أيضاً أن صاحب المشكلة كثيراً ما يعجز عن كشف الأخطاء لأنه ينظر إليها نظراً ذاتياً ومن جانب واحد . أما الناظر المتأمل

للمشهد من جميع الجهات فيستطيع أن يدرك أخطاء كل طرف وبالتالي يحدد الحل ودور كل طرف فيه .

ـ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ الجزاء من جنس العمل لأن الفطرة مقلوبة عندهم ﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴾ حجاة من طين متحجر متراكب بعضه فوق بعض أو في إثر بعض . . ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ ﴾ أي معلَّمة في علم ربك خاصة بهم ولا تصيب غيرهم ولعل الحكمة من الحجارة ـ رغم نزول الخسف بهم ـ أن يصيب الشذاذ المتفرقين من أهلها .

ـ والمشهد من خلال الآيات يبدو كأن الأرض خسفت ـ قد تكون انشقت بزلزال ـ ثم رجم المكان بالحجارة لوأد هذا المرض الخطير ـ الايدز وربما غيره أيضاً ـ وضمان عدم تسرب جراثيمه إلى من حوله .

ـ ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ كما قال في (الصافات) بعد ذكر هلاكهم ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ـ١٣٨] فليست هذه العقوبة بمكان بعيد من مشركي قريش . أوليس بعيداً عن هؤلاء الظالمين الذين يكذبونك أن تنزل عليهم مثل هذه العقوبة . . والكلام موجه لكل الظالمين . . فاعتبروا يا أولي الأبصار .

٦ ـ قصة شعيب :

أكثر هذه القصص جرت في بلاد عربية . . وكأن الله يذكر لقوم محمد ﷺ قصص مَنْ حولهم ممن كانوا يمرون على آثارهم في الأرض . . ولكن التاريخ لم يقف عند العرب . . ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ وسنة الله ماضية في البشر .

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ ﴾ تعود القصة هنا لتمشي وفق مخطط

القصص الثلاث الأولى في هذا القسم .

قال ياقوم : ١ ـ ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

٢ ـ ﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾

٣ ـ ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

٤ ـ ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾

٥ ـ ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

هنا يتصدى شعيب للجانب الاقتصادي وضرورة ربطه بالدين وعبادة الله حتى أن الأمر يشغل تقريباً نصف كلام شعيب في دعوته لقومه .

ـ إن قضية العبودية لله وحده تبدو هنا في الالتزام بحدود الله في المعاملات المادية والمعنوية . وقد مر معنا أن التصور الإسلامي يحدد للإنسان ثلاث علاقات :

فعلاقة الإنسان مع الله : العبودية

وعلاقة الإنسان مع الناس : العدل والإحسان

وعلاقة الإنسان مع الكون : التسخير .

وتحقيق هذه العلاقات هو معنى العبودية والطاعة لله وحده . وكل أمة في الماضي هلكت بسبب خلل في إحدى هذه العلاقات . والقصص السابقة أشارت إلى فساد العلاقة مع الناس حيث يستكبر القوي على الضعيف فيحقره إما في المنزلة الاجتماعية أو بفرض الشذوذ الجنسي عليه . . أو بظلمه في البيع والشراء واحتقار فكره ودينه . وقوم شعيب

كانوا مطففين محبوسين عن الخير والحق ضمن قوقعة الذات .

ـ ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ ﴾ أي في بحبوحة في الرزق كان ينبغي أن تدفعكم إلى الترفع عن دناءة الغش في المكيال والمقياس . أهكذا تواجهون نعم الله عليكم ؟! وكان حرياً بكم أن تشكروا نعمة الله بالإحسان إلى عباده . . ! !

﴿ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ في الآخرة كما قال عن المطففين ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ؟!

ولكن العذاب المحيط يمكن أن يكون في الدنيا أيضاً . . بنزول الهلاك من الله بشكل خارق للعادة كما حصل في الماضي . . أو بمجيء عواقب الافساد وفق سنن الله وقوانينه .

وهو أمر لا بد واقع إلى يوم الدين وإن احتاج إلى وقت لنضوج الثمار .

ـ ويتكرر النداء المشفق بالحذر من هذا الظلم ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾ وتحري الإيفاء بالعدل لا يحصل به التيقن إلا بزيادة قليلة . ولهذا نرى عند تجار المسلمين تقليداً شائعاً وهو إضافة (بحبوحة) عند البيع وهو دليل سخاء عند البائع وورع . . أما إن طلبها الشاري فهي دليل طمع وقد لا تخرج من البائع عن طيب خاطر . . وكل ما أخذ بسيف الحياء مشكوك في حلّه . ورسول الله ﷺ يقول : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى »[1] .

---

(١) رواه البخاري والترمذي .

ـ ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ البخس هو الإنقاص وعدم التقدير للفضل . والأشياء : جمع شيء وهو أعم الألفاظ ويشمل ما للأفراد والجماعات والأقوام من حقوق مادية ومعنوية . « لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

إن الأمر يشمل كل انتقاص من جهد الآخرين وانتاجهم ـ وكل غبن من تقدير أفكارهم وحضارتهم ـ وهو ما ورد في تعريف الكبر « غمط الناس » .

ـ والمسلمون كثيراً ما يكونون بين الإفراط والتفريط في هذا الأمر . فهم ينظرون للآخر على أنه (طاهر مقدس) أو (دنس حقير) ـ كما قال مالك بن بني رحمه الله ـ ففي التعامل مع الحضارة الغربية نجد التيارين : الذين قلدوها في كل شيء حتى الذوبان . . والذين نظروا إليها على أنها شيطان رجيم لا يستفاد منه بشيء . ولكن الديانات السماوية نزلت لتحقيق العدل وغرسه في القلب .

ـ ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ وأي فساد أعظم من ظلم الناس وخداعهم وبخسهم حقوقهم . . إن الظلم يوغر الصدور ويثير النفوس . . وكل الثورات العنيفة في العالم ـ والتي أثمرت الفساد وسفك الدماء ـ كانت ثمرة للظلم .

ـ لا تفسدوا النفس الإنسانية بتعويدها على ظلم الآخرين وغبنهم . . لا تفسدوا الحياة الاجتماعية بإشاعة الاستغلال والكراهية والحقد . بحيث يفقد الإنسان الأمل والثقة بأمته . . حتى يعرض عن واجبه نحوها .

---

(١) رواه مسلم .

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ ﴾ ما يبقى لكم بعد إيفاء الكيل والميزان من الربح الحلال خير لكم من هذا السحت الذي تحاولون الحصول عليه . وهذه حقيقة واقعة ولكنها بحاجة إلى صبر وإدراك لرؤية النتائج الأبعد مدى للاستقامة في البيع وكيف أنها تعطي ربحاً أكبر لأن البائع قد حاز ثقة الناس فهم يتهافتون عليه ولكن من يدرك ذلك ؟! المستعجلون لا يدركون ولهذا قال ﴿ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ ﴾

ـ وقد يكون ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ : هي الباقيات الصالحات : الأعمال التي يبقى أثرها الحسن في الدنيا وثوابها مدخر في الآخرة . ومنها ما أشار إليه رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[1] لأن هذه الأعمال تبقى فعالة مؤثرة في حياة الناس .

﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴾ لا أستطيع حفظكم من المعاصي وعواقبها فاحذروا . .

ـ هذه الواقعة الاجتماعية نتيجة لقيمة ثقافية لا تقتصر على قوم شعيب . . فالتطفيف سلوك ناتج عن إعطاء المال الأولوية في سلم القيم . . وتورم الذات حتى تسيطر الأثرة على التفكير والسلوك . إنه مرض الأمم القوية المعاصرة الآن فلقد أصبحت تعبد المال (الاقتصاد) وتعبد الهوى (إرواء شهوات الذات) .

ـ إن الإنسان يرتقي في نموه عبر مراحل . . فالطفل الصغير حبيس لذاته يظن العالم ملكاً له . . وهي مرحلة (الأثرة) . . ثم يبدأ فيدرك ملكية الآخرين وحقوقهم وهي مرحلة (العدل) . . لكنه حين يتفاعل مع الدين

---

(١) رواه مسلم .

يرتقي إلى أعلى مرحلة (الإيثار) أو (الإحسان) . وحين تتأمل الحياة الاجتماعية ترى أن الأثرة مدمرة للأمة . والعدل ينقذها لكنه لا يكفي لنموها وارتقائها . . إن الحياة الاجتماعية لا تنمو إلا بالإيثار . . والأم تؤثر طفلها على نفسها منذ كان جنيناً في بطنها إذ يستأثر بحاجته من الغذاء والكالسيوم . ولا ينمو الإنسان إلا بإيثار أمه له .

ـ ونحن نرى أن الأمم التي قطعت علاقة العبودية مع ربها تعجز عن الثبات على علاقة (العدل) مع الناس . . فإذا عجزت عن العدل فكيف نطمع بالإيثار . . ؟! وهذا ما يعوِّق السلام والأمن في العالم . والفرق شاسع بين الشعارات والواقع ورسول الله ﷺ قد عرف الإحسان (والإيثار) ـ الذي هو معاملة سلوكية مع الناس ـ بأنه في جوهره علاقة حميمة مع الله تعالى « أن تعبد الله كأنك تراه » .

ـ كيف جاء ردهم على دعوة شعيب ؟

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ .

بعبارة أخرى يقولون : ما دخل الصلاة بالثقافة والقيم والتقاليد ؟!

وما دخل الصلاة بالاقتصاد ؟! إن مشكلة فصل الدين عن الحياة هي ما يعاني منه عالمنا . . حتى أصبح الدين محبوساً في الكنيسة والمسجد وليس له أن يتدخل في أحداث العالم . . ولكن الدين جاء ليكون ثورة مفاهيمية تصحح الفكر والنفس لتنعكس على السلوك وتصحح واقع الحياة البشرية .

وهذا أمر لا علاقة له باحترام حرية الآخر في الدين والفكر . . لأن كل الناس ـ على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ـ يطمحون إلى تحقيق حياة

عادلة . والأديان والمبادىء هي الدافع الداخلي للالتزام بالاستقامة والإحسان . وإلا فما نفع الدين - وتعريفه أنه طريقة الحياة - إن قصرناه على الطقوس ؟! ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ . . ﴾ [البقرة : ١٧٧] وتعدد أنه هو الإيمان وهو سلوك العطاء والانفاق وهو أداء الفرائض وهو الأخلاق الطيبة . . فالأمر أكبر بكثير من مناجاة في صومعة أو طقوس . .

- ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ مقدساتنا والقيم التي ورثناها عن الآباء وتقاليدنا . . حقاً إن إرث الآباء ثقيل . . وكم ندد القرآن بالآبائية وطلب من الناس أن يتحرروا من أغلالها . . ولا يعني ذلك إلغاء تراث الآباء وأفكارهم ولولا التراث لما استطعنا أن نطور المعرفة . . إذ لا بد عندها أن نبدأ باكتشاف كل شيء من جديد . ولكن في التراث أيضاً كثير من الصور الذهنية الخاطئة عن الحقائق . . فلا بد من تمحيص التراث لفصل النافع المعين على التسخير من الأوهام أو النظرات التي كانت تناسب عصراً معيناً . . وقد شبه أحد المفكرين عالمنا المعاصر بالقزم الذي يجلس على رقبة العملاق (وهو التراث) فهو يستفيد من كل قدرات العملاق . . لكنه يستطيع أن يرى جوانب لم يرها العملاق وهذا يعينه على توجيه سيره في نمو مطرد .

وقد وقع المسلمون في تقديس أفكار السلف الصالح وكل الاتجاهات الإسلامية تعلن التزامها بالنصوص (الكتاب والسنة) لكنها فعلياً تلتزم بالتفسيرات التي قدمها العلماء في الماضي للنصوص . وبذلك أصبحنا نعاني من أغلال فكر الآباء .

- ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ ؟! كيف تتدخل في اسلوب

تصريف أموالنا . . ؟! ويتساءلون بسخرية ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ ؟! كنا نظنك عاقلاً تحترم حرية الآخرين في أفكارهم وأموالهم!! ولكن العاقل الرشيد لا يترك السفينة تغرق بسبب تصرفات الجاهلين . ولا ينزوي عنهم قائلاً : هم أحرار ولا دخل لي بهم . . !!

ـ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ » يا قوم كيف أترككم وأنا متيقن أنكم في طريق الهلاك . . ؟! أخبروني أيعقل هذا وأنا متأكد ومعي بينة (حجة) واضحة من الله ؟! إنني متأكد أن الدين يجب أن يتدخل في تغيير الأفكار والتقاليد وفي تصريف الأموال وإلا فسدت الحياة وهلك الناس . ذكروا مرة في الإذاعة البريطانية : أن (١٧) ألفاً من أطفال العالم الثالث مهددون ـ في ذلك العام ـ بالمرض والموت . ويقولون في التقرير : يكفي لحل المشكلة ما تنفقه الدول الصناعية على المشروبات الروحية لمدة عام . ويكفي لذلك ما يُنفق على التسلح و(التسلط) لمدة أسابيع فقط . . فمن هو الحليم الرشيد ؟! ويا قوم أليس منكم رجل رشيد ؟!

ـ ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ بالحلال دون تطفيف ولا بخس . . فأنا مجرب في الكسب الطيب الحلال وبركته . ولا أخترع لكم آراء نظرية ليست لها قيمة واقعية . . ويمكن أن تشمل الآية ما رزق من فكر نير وما أنزل عليه من نبوة ورسالة . .

ـ ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ فلقد طبقت على نفسي قبل أن أدعوكم إذ أن من الأسباب الهامة لفشل المبادىء عدم التزام دعاتها بها . . كما يحصل مثلاً في المدارس حيث يفرض جهاز الإدارة على الطالبة أن لا تتزين بينما تأتي كثير من المعلمات وكأنهن ذاهبات إلى حفلات . . !

شعيب يقول لقومه : أنا لا أضع نفسي فوق القانون . فالأنبياء هم أول من يلتزم بالأوامر الإلهية ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ وكلامي لا يصدر عن هوى ولا مصلحة شخصية . . بل أريد إصلاح حياتكم .

- ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ فقد أديت واجبي ولهذا ألجأ إلى الله وأتكل عليه في تحقيق التوفيق .

- ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ ﴾ لا يدفعنكم الخلاف بيننا وعداوتكم لي إلى ارتكاب جريمة بحق أنفسكم . . بأن تعرضوا عن أمر الله فينزل عليكم غضبه ﴿ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ في المكان أو الزمان . . أو لعل القصد : إن أعمالكم قريبة من أعمالهم . . فهم أفسدوا في العلاقة الجنسية وأنتم في المال . .

- ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ والاستغفار الاعتراف بالخطأ والتوبة هي الإقلاع عنه وتصحيح المسار . ويرغبهم ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ يأمركم رحمة بكم وينذركم من الخطأ لأنه ودود يحب عباده ويحب لهم الخير كما يقول في آيات أخرى ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] ولكن قومه لم يفهموا عليه . . ويحسون أنه ينغِّص عليهم . . ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ في الحقيقة أنهم عبروا تعبيراً دقيقاً عن حالتهم . . إن نظارتهم الثقافية تحول بينهم وبين رؤية ما يشير إليه من نتائج بعيدة لعصيانهم . . والعجيب أنهم يعرفون ما حل بقوم نوح وهود وصالح . . ولكن أغلال الهوى والآبائية تحرمهم من الاعتبار . . وتجعلهم لا يفقهون . .

- ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ وعبّاد القوة لا يسمعون للضعفاء ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ والرهط : الجماعة من الثلاثة إلى العشرة . وهي إشارة إلى أهل شعيب ورجال أسرته . فهم يمتنعون عن إيذاء شعيب خوفاً من

رهطه أو إكراماً لخاطرهم . ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ لا تمتنع منا ولا يهمنا أمرك .

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ ﴾ ؟!

أتخافون من جماعتي أكثر من خوفكم من الله ؟ أو تحرصون على رضاهم أكثر من رضا الله ؟! لقد أعرضتم عن ربكم وتركتم أمره وراء ظهوركم.. كيف نسيتم المرجع إليه ؟! ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ هذا عتاب يهز الأعماق في كل عصر.. فشتان بين الناس وعلمهم واقتدارهم وبين الله.. فإن الله لا تفلت منه شاردة ولا واردة .

- ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾ اعملوا على مكانتكم : بكل ما تجدون في إمكانكم وتسمح به مكانتكم.. وأنا عامل ما في إمكاني من التزام واستقامة ونصح للآخرين . وسنرى كيف تأتي النتائج . النبي هنا على يقين من النتائج ويتحدى بها قومه.. والتحدي بالنتائج أسلوب علمي.. لأن العواقب هي التي تحكم من كان على خطأ لكن التحدي بالعواقب لا يقدر عليه إلا من توفر فيه العلم والعمل فهو يعرف سنة الله في الاجتماع وهو يعمل كل ما يقدر عليه أما من لم يبذل جهده فسيهلك مع الهالكين.. وشعيب هنا مستيقن يقول « سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب » ولا يستثني بقوله (إن شاء الله) كما يأتي في مواضع أخرى .

- والسؤال هنا : هل من المعقول أن تتعلم الأمة صلاحية المبادىء بالتجربة بنفسها دون أن تستفيد من تجارب السابقين والآخرين من حولها.. ؟!

إن هذا يبدد وقتاً طويلاً ويضيع فرصاً كثيرة للنمو.. ولا بد أن تكون

الآلام والنكبات كبيرة . . ومن المؤسف أن الإنسان لا يستفيد من تجارب الآخرين . . فلا يتعلم حتى يدفع ثمن الدرس . وبقدر ما ألح القرآن على الناس في دراسة التاريخ والتعلم منه بقدر ما أعرض المسلمون عن ذلك .

ـ ولهذا كانت كلمة ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ ﴾ هي آخر كلمة يقولها الأنبياء بعد أن يبذلوا جهدهم في إيقاظ الفكر والضمير وعرض تجارب الأمم السابقة وعرض كل ما يمكن من أدلة . . فإن لم يستجيبوا قالوا لهم : انتظروا النتائج فهي التي تحكم بيننا .

ومع ذلك فإن المربي يجب أن يترك فرصة للناشيء ليجرب بنفسه بعض الأمور ويجني عواقبها لأن هذا يسرِّع في نضجه ويجعله أقدر على الاستفادة من تجارب الآخرين . وكثيراً ما ينظر الناشيء إلى قرارات الكبار على أنها نوع من الاستبداد والتسلط ولا بد من إعطائه مساحة ـ أقل ما يمكن خطراً ـ للتجريب حتى يدرك . . وأتذكر هنا ما ورد في السيرة أثناء حصار الطائف فقد كانت البلد حصينة وأهلها على الأسوار يرمون بالنبل كل من يقترب فأمر النبي أصحابه بالرحيل وقال : إن الله لم يأذن لي بفتحها . . فجاء بعض الشباب المتحمسين . . وقالوا يا رسول الله كيف ننصرف عنها . . نحن قادرون على الهجوم والفتح . . قال لهم النبي : دونكم وما تريدون . . فهجموا على الأسوار بكل حماس فأصابهم وابل شديد من النبال . . فتراجعوا وقد أصابتهم الجراح . . فلما نادى رسول الله ﷺ مرة أخرى بالرحيل . . أسرع الجميع لتلبية النداء .

ـ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا ﴾ وهي نفس العاقبة التي أصابت الأقوام السابقين . . وتتكرر العبارات نفسها في التعقيب . ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ ﴾ لعلها الصاعقة بصوتها الرهيب ﴿ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ كما حدث لثمود إذ خروا على الركب

عاجزين ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ﴾ كأن لم يقيموا ويتنعموا فيها . . وينادي عليهم بنفس القرار الرهيب ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ وما أقس هذا البعد عن الله وأنبيائه وأتذكر هنا ما ورد في الحديث : إذ يرى رسول الله ﷺ رجالاً من أمته ـ في الآخرة ـ يردون الحوض فيختلجون ولا يقدرون على الوصول إليه . فيقول هؤلاء من أمتي (متسغرباً حالهم) فيقال له : إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك . فيقول : سحقاً وبعداً لهم .

أخيراً : أوجز النقاط الأساسية التي وقفنا عليها في قصة شعيب :

١ـ الأديان تحدد شبكة علاقات معينة : عبادة مع الله ـ عدل وإحسان مع الناس ـ تسخير مع الكون .

٢ـ في الإسلام : الخلل في العلاقة مع الناس والكون يعتبر نقصاً في عبادة الله .

٣ـ أهمية الاعتراف بالخير الموجود عند الآخر وتقديره حق قدره .

٤ـ معوقات أمام التوحيد : ١) الآبائية ٢) فصل الاقتصاد عن الدين .

٥ـ لب التوحيد أن لا يوضع أحد فوق القانون . والأنبياء أول من يلتزم .

٦ـ الخلاف في الرأي قد يفقد الإنسان التعقل والموضوعية .

٧ـ التاريخ فيه دليل على صدق الأنبياء .

٨ـ عبادة القوة المادية تعوق الإدراك والاعتبار بالتاريخ .

٩ـ فليعمل كل بما آمن والعاقبة هي التي تحكم (التحدي العلمي بالعواقب) .

١٠ـ آخر إنذار يقدمه النبي هو التحدي بالعواقب .

٧ ـ قصة موسى :

وهي موجزة في هذه السورة وتقدم خطوطها العريضة في أربع آيات . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أرسل موسى بأمرين :

ـ آيات الله : ويقصد بها غالباً الآيات التسع المذكورة في سورة الإسراء(١٠١) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ولعلها هي : العصا ـ ضم اليد ـ سنين المجاعة ونقص الثمرات ـ الطوفان ـ الجراد ـ القمل ـ الضفادع ـ الدم ﴿ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[1] [الأعراف : ١٣٣] ـ أي أنها المعجزات .

ـ وسلطان مبين : ما هو هذا السلطان ؟ لم يكن مع موسى لا مُلك ولا جيش ولا أسلحة . . !! القرآن يستعمل كلمة السلطان عن الكتاب السماوي أحياناً وعن العلم ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] . وهو هنا بمعنى الكتاب الذي أنزل على موسى ويصفه بأنه (سلطان مبين) . وهو وصف دقيق لأن الكتب السماوية والعلوم هي صاحبة السلطان الحقيقي في التأثير في النفوس والأعمال وبالتالي في الأقوام . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] . وأما القوة المادية فلا سلطان لها على النفوس . . وإنما يمكن أن تمارس القهر على الإنسان إلى حين .

ـ ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ إلى فرعون والكبراء والأعيان في مجلسه ﴿ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ الكبراء والشعب اتبعوه ﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ كيف يعرف رشاد الأمر ؟ بفحص أخبار الأمم السابقة ورؤية عواقب عصيان الله . فالعاقبة هي الميزان الذي توزن به الأفكار والقوانين والأعمال .

---

(١) انظر في الآيات قبلها .

ـ ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ يأتي قائداً لقومه يوم القيامة إلى النار كما كان قائداً لهم في الدنيا إلى الظلم والضلال . . فالأتباع قد ألغوا عقولهم وسلموا مقاديرهم إلى المستكبرين . . فهم وإياهم في النار على قدر سواء .

وكم خدع الكبراء أتباعهم في الدنيا بقولهم ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ وكم قال الشيطان لأوليائه « إني جار لكم » أحميكم . . لكنهم في الآخرة يتبرأ بعضهم من بعض ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ الوِرْد : هو النبع أو حوض الماء . هؤلاء العطاش المتهالكون من شدة الحشر يردون النار ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد : ١٥] . فما أشد بؤس هذا الوِرْد .

ـ ﴿ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً ﴾ ففي الدنيا تلاقيهم اللعنات من الله والناس . . ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ أيضاً تلاحقهم اللعنات .

﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ الرفد : هو العطاء . . لقد كان الرفد الموعود (المرفود) من فرعون لقومه هو هذه النار . . ألم يعد السحرة بالعطايا وأنهم من المقربين إن تغلبوا على موسى . . ؟! فما أشد بؤس هذا العطاء وهذا الرفد . ! !

ـ يقول صاحب المنار : (والعبرة في الآيات أنه لا يزال يوجد في البشر فراعنة يغوون الناس فيطيعونهم ويذلون لهم . . ولم يستفيدوا من هداية القرآن . . ولا طاعة لأحد في معصية الخالق وإنما الطاعة في المعروف) . ففي الايات تحذير لكل الأقوام من فراعنتها التي تدعي أنها تخدم الأمة . وها هو كلينتون يقول لشعبه بعد ضرب العراق بالصواريخ ـ في آخر عام ١٩٩٨ ـ يقول للأمريكيين : (يحق لكم أن تفتخروا بما قام به أبناؤكم)! ! هكذا يمنُّ على الشعب الأمريكي . . ويقول لهم افتخروا

بسحق الشعوب وسلب ثرواتها . . !! فبئس الورد وبئس الرفد المرفود .

ـ وانظر إلى موسى كيف كان يستنكر هذا الخداع من فرعون زمانه : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ٢٢] ؟! تمنون على الشعوب بإلغاء إرادتها والتغرير بها حتى تصبح طوع إرادتكم . . والنار مثوى للكبراء والمستضعفين .

* * *

٣ـ تعقيب وختام

١ـ تعقيب مباشر على القصص :

يتوجه الخطاب الآن إلى النبيّ ﷺ مذكراً بنعمة تعليم الله له ومسلياً عما يلقىٰ من تكذيب

ـ ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ﴾ هذا بعض أنباء الثقافات والحضارات الماضية ﴿ مِنْهَا قَآئِمٌ ﴾ له بقايا ماثلة أمام الأعين (مثل قرى قوم صالح) ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ درست آثاره كالزرع المحصود الذي لم يبق منه شيء : (مثل قرى قوم لوط) . وقد تم ذلك كله وفق سنة الله في تحميل الإنسان مسؤولية مصيره .

ـ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ وقد أدرك المؤرخون هذه السنة فقالوا إن الحضارات لا يقضى عليها بالاجتياح الخارجي ولكنها هي التي تنتحر بيدها . وإن الرياح حين تعصف لا تكسر إلا الشجرة المنخورة المتآكلة .

ـ ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ كل شيء تلجأ إليه وتعتقد فيه النجاة يعتبر إلهاً لك . . والشرك هو الفهم الخاطىء لسنن الكون . . فحين تتوجه إلى غير سنن الله فقد وقعت بالشرك وحرمت من الوصول إلى هدفك . . والمشكلة في الصورة الذهنية للإنسان التي لا تخلو من خطأ أو وهم . . ولكن الله يعفو في الآخرة عمن بذل

جهده واجتهد ـ وكان مؤمناً بالله متوجهاً إليه في سعيه ـ بل إن الله يعده بالأجر. . ولو حُرِم من النجاح في الدنيا بسبب فقدان الرؤية الصحيحة لسنة الله . أما من لم يؤمن بالله وسننه ولم يجتهد في تصحيح النظر فقد حرم الدنيا والآخرة. . ولهذا قال : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ إذ جعلوهم يخسرون الدارين. . وذلك بتجرعهم عاقبة مخالفة سنن الله في الدنيا. . والتخلي عنهم في يوم الحساب .

وقد تكرر في القصص السابقة للأقوام : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ . . فهي العاقبة الدنيوية لمخالفة سنن الله. . وتأمل في القرآن كيف يجعل التاريخ علماً إذ يجمع تجارب بشرية عديدة ليستخرج منها سنن الحياة والهلاك للأمة .

ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ورد عنه ﷺ « إن الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »[1] . ثم قرأ هذه الآية. . أواه. . ماذا أقول وأنا أرتجف أمام الآية وأمتي نائمة سادرة. . ضائعة. . والسياط تلسع كيانها. . وهي لا تعتبر!!

بتاريخ ١٧/١٢/١٩٩٨ كتبت : (أحسست بقلبي يعصر وأنا أسمع أنين صفارات الإنذار وأصوات الانفجارات وأرى التماعها يكاد يخطف الأبصار. . فوق سماء بغداد. . كل ذلك عبر الشاشة الصغيرة للتلفاز . ذاك هو العدوان الأمريكي على العراق قبل فجر اليوم. . أنين إخواني وأخواتي يضج في قلبي. . والإنسان البدائي الهمجي قد بعث في زي حديث وسلاح مروع حديث. . ينقض على إخوانه من البشر بكل وحشية لينتزع منهم (عظمة). . !! وأتعجب من العالم الإسلامي. . ما زلنا

---

(١) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري .

نتجادل حول مقاطعة البضائع الغربية.. وهو أضعف الإيمان.. فبم نعتذر أمام الله يوم القيامة ؟! حتى الآن لم نكفر بالطاغوت حتى ندخل في الإيمان.. ولعل كل واحد فينا يمثل صورة مصغرة من (صدام حسين).. ولا بد من التفرغ لإعادة بناء الإنسان المتحرر داخلياً من الطاغوت ـ أو مرض الاستكبار والاستضعاف ـ وإلا فالدمار الشامل لهذه الأمة.. وكما قال الشاعر : فإن الوقت ضاق عن الصغار . ولكن أين من يسمع ؟!)

وبعد أيام من ذلك اطلعت على مقالة للدكتور خالص جلبي في جريدة الرياض بعنوان : الاجتياح الخارجي والتفسخ الداخلي . يستحضر التاريخ ويرينا أحداثاً مشابهة جرت لهذه الأمة : عندما اجتاح المغول بغداد في ١٢٥٨م في تدمير رهيب لا يكاد يرى له مثيل في التاريخ.. ويتحدث عن بعض ما كان قبله في داخل الأمة ويذكر كيف أن السلطان العباسي (الناصر لدين الله) كان قد راسل جنكيز خان ودعاه لغزو بلاد خوارزم لتخليصه من ملكها جلال الدين الذي كان ينازعه وينافسه في النفوذ.. فجاء الطوفان التتري وأهلك ولده المستعصم و أحفاده.. وقبل هذا التاريخ بعشر سنوات سقطت اشبيلية (في الأندلس) ضمن مآس كثيرة.. وتحققت نبوءة ابن خلدون بسقوط المشرق كما سقط المغرب.. ومن راقب أحوال الأمة في ماضيها وحاضرها استطاع أن يتنبأ لها..

وماذا بعد ؟! إن العرب والمسلمين يتنازعون ويستعينون على بعضهم بالأجانب وستأتي العواقب فتجتاح الأخضر واليابس وتأخذ الصالح والطالح.. ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ فهل من مدكر ؟! ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ٥١] ؟! أين أصحاب العقول والأبصار ؟!

٢ـ في ذلك آية لمن خاف الآخرة :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ إن نزول العذاب في الدنيا فيه دليل وحجة لمن أعطى الأولوية للآخرة . ولا تغتر بعدم نزول العذاب على الظالم في الدنيا فإن العواقب في الدنيا تأتي جماعية ـ بحسب أعمال الأكثرية ـ والآخرة خير وأبقى للمؤمنين .

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ يصور مشهد يوم الحشر وكأنه قد حصل . . فقد جمع له الناس وهاهم يشهدون أحداثه كما تشهده خلائق أخرى . .

ـ ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ فله موعد مضروب حدده العليم الحكيم .

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ومن يجرؤ على الكلام وقد حشر الجميع أمام الله ؟ ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

[طه : ١٠٨] .

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : ٦٥] ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ والسعداء درجات والأشقياء دركات . .

ـ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ والزفير يكون عند شدة الكرب والشهيق للبكاء . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ هل يعني ذلك أن الخلود مرتبط ببقاء السموات والأرض ؟!

وماذا يقصد بالاستثناء ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ؟! لا أحب الخوض في الأمور الغيبية وأومن بحكمة الله في مشيئته التي لا راد لها . . فهو أعلم بما يناسب .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ . والله يريد لليبين لعباده . . ويريد أن يتوب على عباده . ويريد أن يخفف عن عباده[1] لكنه أيضاً يريد أن ينصف عباده ويقتص لهم ممن ظلمهم . . يحدث لي أحياناً أن أتساءل برعب عندما أمر بآيات العذاب : كيف هذا يارب وأنت أرحم الراحمين ؟ لكنني حين ألتفت إلى ما يجري في عالمنا من جرائم على أيدي الطغاة والمستكبرين الذين يسحقون الأمم ولا يبالون بعذاب الأطفال والضعفاء (كما يجري على أيدي الأمريكان واليهود في فلسطين والعراق وغيرها) أشعر بالغصة وأقول : رب ما أحلمك ! ! وأتذكر قول الرسل للوط ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ ؟

ـ ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ عطاء لانهائياً . . بدون انقطاع . .

نلاحظ هنا أنه يطلق على الكافر (شقي) وعلى المؤمن الفائز (سعيد) . . وما من إنسان إلا ويحلم بالسعادة ويخشي الشقاء وقد يقضي الإنسان عمره وهو يبحث عن السعادة دون جدوى لأنه لا يربطها بالحاجات النفسية للإنسان الذي خلق في أحسن تقويم فهو يسعى إلى تحقيق الذات والرضى عن الذات (كما ذكرنا سابقاً عند هرم ماسلو) ولهذا قال الشاعر :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقي هو السعيد

ـ إن سعداء الآخرة قد ذاقوا بداية السعادة في الدنيا حين حققوا الكرامة الإنسانية في ذواتهم . . ذكر منهم رسول الله ﷺ نماذج : « الراحمون يرحمهم الرحمٰن » .

---

(١) نساء/ ٢٦و٢٧و٢٨ .

« إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقاً »[1] .

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧ـ٣٠] .

٣ـ لا تشك في مصير كل مشرك :

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ في هذا تسلية للرسول ﷺ الذي كان يعاني من تكذيب قومه وجدلهم ودفاعهم عن دينهم . . إنهم مثل من سبقهم . .

﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ لقد رفضوا النمو وتجمدوا على فكر الآباء فحكموا على أنفسهم بالموت الفكري فهلكوا قبل أن تهلكهم سنة الله ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾ وفي ذلك إنذار للمشركين وتأكيد لعدل الله في الجزاء . . حتى مع المشركين . . فقد تكون لهم أعمال طيبة كبرِّ الوالدين وصلة الأرحام وإغاثة الملهوف والكرم مع الأضياف . . وإن الله سيعطيهم (يوفيهم : يعطيهم أكثر مما يستحقون) جزاءهم على ذلك في الدنيا بسعة الرزق وكشف الضر وما شابه . . أما الحسنى في الآخرة فلا تكون إلا للمتقين . . وهكذا حصل مع الأنبياء من قبلك . .

٤ـ جاء موسى بالكتاب فكذبوه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ وقوم موسى لم يرعوا حرمة الكتاب الذي ورثوه من موسى . . فاختلفوا فيه بغياً بينهم وتنازعاً على

---

(١) رواه الترمذي .

الرياسة فكانوا شيعاً ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ لقد حكم الله بتأخير المحاسبة والجزاء إلى الآخرة خلافاً لما كان يصيب الأمم في الماضي من عذاب واستئصال . .

أما نتائج الدنيا فتأتي جماعية وبحسب سنة الله ـ لأن المعاصي مؤذية .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ في شك بالكتاب وما نزل فيه . . في شك بيوم الحساب وما فيه من عذاب للعصاة وثواب للمؤمنين .

ولعلها إشارة إلى شك أهل الكتاب بمحمد ﷺ وتكذيبهم به .

ويعود إلى التأكيد على حتمية جني الثمار وحصائد الأعمال ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أهل الكتاب ومشركي قريش والمؤمنين . .

﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ خبير بمقدار ما في العمل من إخلاص وصواب و بذلك تتفاوت الثمار والنتائج .

٥ـ توجيهات :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ توجيه جليل وثقيل جعل النبيَّ ﷺ يقول : شيبتني هود وأخواتها . . سأل سفيان الثقفي رسول الله : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك . قال ﷺ « قل آمنت بالله ثم استقم »[1] في عبارة موجزة جامعة ما نعة تستند إلى الآية التي جعلت مقام الاستقامة أعلى المقامات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ . . ﴾ [فصلت : ٣٠] .

---

(١) رواه مسلم .

ويذكر صاحب المنار : أن عم والده سئل : إنك صحبت الشيخ محموداً الرافعي وإن اتباعه يذكرون له كثيراً من الكرامات فأخبرنا بما رأيت منه ؟

قال : رأيت منه كرامة واحدة هي الاستقامة .

فما معنى الاستقامة ؟ استقام : اعتدل بلا اعوجاج .

والنفس الإنسانية حين تستقيم تكون معتدلة بعيدة عن التطرف والانحراف واضحة لا تلجأ إلى اللف أو الدوران وهذا يعطيها يسراً في الحركة والتعامل .

ـ والآية لا تترك مفهوم الاستقامة عائماً بل تضع له حدوداً وتشرح كيف يكون « فاستقم كما أمرت » باتباع أوامر القرآن . . وهنا نكته لطيفة إذ أن الآية تشع باتجاهين : فالاستقامة باتباع القرآن . . وأوامر القرآن هي الاستقامة . . وهذا يساعد القارىء على فهم أوامر القرآن . . فقد يقدم المفسرون للآية تفسيرات عدة . . فإذا كان مقصد القرآن هو الاستقامة والاعتدال أصبح الفهم أوفى . مثال ذلك ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] فالمعنى بسيط ولا يحتاج إلى لف ودوران حول كلمة الجيب . . إنه أمر بتغطية فتحه الثوب عند الصدر ـ للمؤمنات ـ لأن هذا يتفق مع الاستقامة .

ـ ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ تاب وثاب متقاربتان في المعنى . تاب إلى ربه وثاب إلى رشده بمعنى عاد . . فالأمر ليس قاصراً على النبي بل هو مطلوب من أتباعه .

٢ـ ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ فليست الاستقامة هي الغلو في الدين . ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وفي ذلك تحذير من التشدد والمبالغة .

٣ـ ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ لا تركن لا تجعل الظالم ركناً لك ومرجعاً . لا تستكن ولا تستسلم لأمره . . فهو نهى عن موالاة الظالم .

حكي عند أحد الصالحين (ويقال له الموفق) أنه صلى خلف إمام فقرأ بهذه الآية ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فغشي عليه فلما أفاق قيل له : ما بالك ؟ قال : هذا فيمن ركن إلى ظلم فكيف بالظالم ؟!

وينبغي التمييز بين الإحسان الذي هو حب ورحمة ورغبة في هداية الآخر . .

وبين الركون إلى الظالم الذي هو موالاته والاستكانة له .

ـ قال أحد المفسرين : الأمر الإلهي ـ بالاستقامة ـ هنا بين لاءين لا تطغوا ولا تركنوا . فالأولى تنهى عن الغلو والثانية تنهى عن التهاون فالاستقامة هي الوسط والاعتدال بين خطئين (إفراط وتفريط)

غلو (إفراط)	اعتدال(وسط)	تهاون(تفريط)
طغيان (تشدد)	استقامة	ركون (تسيب)

ومن أدرك حدود الاعتدال في التعامل والعبادة فقد حقق الاستقامة ووصل إلى التوازن السلوكي الإسلامي الذي تهدف له مقاصد الشريعة .

ـ وأحس بأنني لم أبين معنى (الركون) تماماً . . إنه كسل واسترخاء عن أداء الواجب . . إنه اللامبالاة والإحساس بعدم جدوى المعارضة أمام الظلم . . إنه التصاق بالأرض وزهد بالارتقاء . . وهذا كله يدعم الظلم والظالم . . ولهذا يعتبر الساكت عن الحق شيطان أخرس .

ـ وذم الركون إلى الظالم لا يعني المطالبة بالثورة والعنف . . ولكن

كما قال الله ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴾ لا تطعه واقرأ . . لا تطعه وعلم القرآن للناس . لا تطعه واترك المنكر وأمر بالمعروف وانه عن المنكر

ـ وقد ساق رشيد رضا ـ في المنار ـ بحثاً مطولاً تناول فيه حدود الطاعة للحكام عند تفسيره لهذه الآية وذكر عدة أحاديث صحيحة في ذلك . منها « أعطوهم الذي لهم واسألوا الله الذي لكم » . وندد بالخروج على الحاكم ولو رأى فيه ما يكره تحاشياً لوقوع الفتن والحروب الأهلية وقد أوصى بذلك رسول الله ﷺ : « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر . فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية »[1] .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ هل تظنون أن هؤلاء الذين ركنتم إليهم وسايرتموهم على ظلمهم سيكونون لكم أولياء يحمونكم من الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟! ولكنهم مصابون بقصر النظر فلا يرون إلا العاجلة .

٤ـ ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ زلفاً مفردها زُلْفَة أي : قُربَة (من التقرب) . وفي الآية إشارة إلى الصلوات الخمس فكأن (طرفي النهار) هما الظهر والعصر . . والباقيات في ساعات الليل القريبة من النهار أما الآية الصريحة التي تحدد أوقات الصلوات الخمس فهي قوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧ـ١٨] .

ـ ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ وفي الحديث « وأتبع السيئة الحسنة تمحها »[2] . جاء في التفاسير أن المقصود بالسيئات هنا : الصغائر .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الإمام أحمد .

وأيدوا ذلك بما روي في سبب نزول الآية : عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك كأنه يسأله عن كفارتها فأنزلت عليه الآية . فقال يا رسول الله ألي هذه ؟ قال ﷺ : « هي لمن عمل بها من أمتي »[1] .

كما أنه ورد أن رجلاً قال للنبي ﷺ : (يا رسول الله أقم في حد الله) مرة أو مرتين فأعرض عنه ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ منها قال : « أين الرجل » ؟ قال : أنا ذا قال ﷺ : « أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً ؟ » قال نعم قال « فإنك خرجت من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد »[2] .

ـ إن التوبة تبرهن على نفسها بأداء الحسنات . . وإن من كرم الله تعالى وعده بمغفرة الصغائر والكبائر إلا الشرك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء : ١١٦] إلا إذا كان الذنب يتعلق بحقوق العباد فإنه يجب أداؤها أو التحلل من أهلها . وللغزالي تعريف لطيف للتوبة وأنها مركبة من علم وحال وعمل . . وكل واحد سبب لما بعده . فالعلم بحرمة الذنب وكونه سبباً لسخط الله وعقابه يوجب الحال : أي يحدث الخوف وألم النفس وهذا يوجب العمل وهو ترك الذنب وتكفيره بالحسنات .

ـ ﴿ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ الذاكرين الله هم الذين يستفيدون من هذه الفرصة التي يمنحهم الله إياها ويذكرهم بها وهي فرصة محو السيئات بالحسنات .

---

(١) رواه الجماعة إلا أبا داود .

(٢) رواه مسلم .

٥ـ ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ كما قال له بعد قصة نوح ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ إن علمك بأن صبرك لن يضيع هباء بل يوصلك إلى النتيجة هو الذي يعطيك قدرة على الصبر . وإن المحسنين يبذلون من الجهود أكثر مما فرض عليهم . . ويقدمون الخدمات للأمة مجاناً . . بل ربما يكون أجرهم من الناس هو الأذى . . ولكن هذه الخدمات والأعمال تتجمع لتؤتي ثمارها في الوقت المناسب . . وربما تظهر الثمار في الدنيا بعد أن يموت المحسن . . وكثير من العلماء والمصلحين لم يعرف قدر جهودهم إلا بعد موتهم . . أما في الآخرة فالأجر محتوم ومضاعف . ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ٤٦] إن أعباء الإصلاح والدعوة إلى الخير ثقيلة والعون في الصبر والصلاة ولا يقدر على ذلك إلا المتصلون بربهم الموقنون بلقاء الله . . وإن عواقب الإحسان في الدنيا لها آجال ولا بد من الصبر في انتظارها دون استعجال . . والاستمرار والدأب على الإحسان مهما كان رد الناس هو دليل اليقين بلقاء الله . ولا ننسى أن من الجزاء الطيب المبارك : هناء النفس ورضى الضمير (الرضى عن الذات)

٦ـ عودة إلى القرون الأولى :

﴿ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ . . ﴾ لو كان في الأمم السابقة (أولوا بقية) يعبرون عن الخيار بالبقية . . لأن الخير هو الذي يبقى ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الرعد : ١٧] فلو كان منهم جماعة أصحاب بقية من النهى والرأي والصلاح ينهون الناس عن الفساد فلعلهم يؤثرون في أقوامهم ويقللون نسبة الفساد الحاصل وبذلك يؤخرون نزول العذاب أو تفشي العواقب الوخيمة . لأن سنة الله تقضي ألا يهلك قوماً إلا إذا تفشى الفساد وعم

الأكثرية.. كما سألت إحدى أمهات المؤمنين (أنهلك وفينا الصالحون ؟) قال ﷺ : « نعم إذا كثر الخبث »[1] .

- روى ابن مردويه في تفسيره عن أبي بن كعب قال : أقرأني رسول الله ﷺ « أولوا بقية وأحلام » يقول صاحب المنار : والأقرب أنه ﷺ ذكر الأحلام تفسيراً لا قرآناً .

فأصحاب الأحلام والعقول هم الذين يدركون قيمة دعوة الأنبياء وهم الذين ينهون عن الفساد.. وهم الملح الذي يحفظ الأمة من التفسخ.. ولا بد من وجود العدد الكافي للأمة من هؤلاء.. فقد كان في الأمم السابقة عدد قليل لا يكفي للإنقاذ :

- ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ وكانت نجاتهم مع أنبيائهم برحمة من الله وكأنها استثناء خاص لهم من سنن الدنيا الجماعية . ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أترفته النعمة : أبطرته وأفسدته . ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ ولكن الآية تصور حركتهم بشكل مرئي : فكأنهم كانوا يبحثون عن الترف ويتبعونه وهو يلاحقهم ويغرقهم فيه ليكون امتحاناً لهم . ولكنهم سقطوا في الامتحان وصدر عليهم حكم الله بأنهم كانوا مجرمين .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ فالله سبحانه لا يهلك القرى بدون سبب لأن الله لا يظلم.. ويمكن أن يكون المعنى : إن الله لا يهلك القرى بشرك (لأنه قال إن الشرك لظلم عظيم) وأهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية وأحكامهم المدنية.. فالأمم تبقى مع الكفرو لا تبقى مع الظلم . وقد يكون المعنى : إن الله لا يهلك

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن .

القرى بظلم قليل من أهلها لأنفسهم إذا كانت الأكثرية منهم مصلحين . وذكرت رواية للطبراني أن رسول الله ﷺ فسر الآية« وأهلها ينصف بعضهم بعضاً » .

ـ ولابد من ملاحظة الفرق بين صفة(مصلحون) و(صالحون). . فالصالح أصلح نفسه فقط. . ولكن المصلح : يتصدى لإصلاح الآخرين . ومن الواضح أنه لا يكفي لانقاذ الأمة وجود عدد من الصالحين . ولكن المصلحين هم أولوا البقية الذين ينهون عن الفساد في الأرض. . وهذا يحتاج إلى صفات وتحصيل كبير. . وأتذكر قول ابن تيمية عن شروط الأمر بالمعروف وأنها ثلاثة :

١ـ العلم قبل الأمر بالمعروف .

٢ـ الرفق أثناء الأمر .

٣ـ الصبر بعد الأمر .

٧ـ الاختلاف سنة في حياة البشر :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ على دين واحد لا رأي لهم فيه ولا اختيار كالملائكة . لكنه اعطى الإنسان قدرة على الاختيار وهذا ما يجعل وجهات النظر تختلف ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ وهي سنة الله في الحياة وفي الخلق « ولا يزالون مختلفين » وهي سنة الله في الحياة وفي الخلق ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩]. فكما أن النمو والتكاثر لا يحدث إلا بالزواج بين الجنسين. . فإن النمو الفكري والاجتماعي والحضاري للأمة لا يتحقق إلا بوجود الرأي ونقيضه فإذا وجدت أخلاق الاختلاف يمكن أن يتلاقح الرأيان فيخرج منهما تصور جديد وحلول جديدة .

٨ـ إلا من رحم ربك :

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ هذه إشارة واضحة إلى أن هناك اختلافاً مذموماً يحرم أصحابه من رحمة الله وهو الذي يؤدي إلى تمزيق الأمة ونشوب الصراع فيها . وقد حذر من ذلك في توجيهات أخرى مثل قوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمرن : ١٠٣] . وعلى ذلك يمكن أن نقول : إلا من رحم الله فاحترم الاختلاف ولم يحوله إلى صراع وفرقه وفتن داخلية .

ـ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ على أي فرقة نعطف هذه العبارة ؟ هل خلقهم للاختلاف ؟! أم خلقهم ليدخلوا في رحمة الله(ليرحمهم) ؟! لا حرج في قبول الوجهين فقد خلقهم الله للاختلاف الطبيعي الذي يحافظ فيه كل طرف على احترام الآخر وعنده تتلاقح الأفكار وتثمر الجديد . والله خلقهم أيضاً ليرحمهم ويخرجهم من الأزمات بحلول جديدة . وليختاروا النمو والارتقاء بأنفسهم .

ـ ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ حكمه على من حولوا الحياة إلى صراع(فالقاتل والمقتول في النار) ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ الذين أساؤوا استعمال ما أعطاهم الله من حرية وقدرة على الاختلاف والاختيار . . من الجن والإنس .

ـ أعود لأسجل النقاط الأساسية في موضوع الاختلاف :

١ـ الاختلاف سنة لنمو الحياة البشرية بشرط أن تتوفر فيه أخلاق الاختلاف .

٢ـ الاختلاف المنهي عنه هو الذي يؤدي إلى التفرق والصراع .

٣ـ من رحم الله احترم الاختلاف ولم يحوله إلى صراع .

٤ـ يجب أن نحترم حق الإنسان في أن يخالف ويختلف دون أن يخرب .

٥ـ الحاكم المسلم يسمح بالاختلاف في الرأي لكنه لا يسمح بمخالفة القانون .

٦ـ على المسلم أن يطيع الحاكم في المعروف ولو اختلف معه في الرأي .

٧ـ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

٩ـ تثبيت فؤاد النبي بهذه القصص :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ فإن رأيت ما حدث لمن قبلك من الرسل وكيف جادلتهم أقوامهم وكيف كذبوهم وهددوهم.. ثم جاء وعد الله فأهلك المكذبين ونجّا الرسل.. أن هذا يسليك ويزيد من يقنيك في أن العاقبة للمتقين..

﴿ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ ﴾ في هذه القصص.. أو في هذه السورة . ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إنه الحب الإلهي الذي لا يهمل الناس فهو ينزل لهم الحق وينصحهم ويبين لهم العواقب ويذكرهم بأيام الله..

١٠ـ التحدي العلمي بالعواقب : اعملوا وانتظروا

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ وهو ما قاله شعيب لقومه في ختام دعوته ونصحه لهم . وهو آخر ما يقوله النبي لقومه ـ كما ذكرنا ـ لأنه يرحمهم ولا يريد لهم أن يكونوا حقل تجارب.. وقد يستهلك ظهور العواقب وقتاً طويلاً..

إن مراقبة عواقب السابقين في التاريخ أسهل وأقل كلفة.. وقد

جعل الله لنا التاريخ مختبراً للعلوم الإنسانية . . بدلاً من أن نجعل الإنسان أو الأمة حقل تجارب ونجرعهم الآلام . . ولكن حين يعرض الإنسان عن التاريخ ويستخف به . . وحين يظن أن تجربته فريدة و أنه أذكى وأكثر حيلة من السابقين المتخلفين . . فلا يبقى إلا أن يقال له : أنت وذاك . . ﴿ اَعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ ﴾ . .

- ولا ننسى أن القرآن استعمل « انظروا » و« انتظروا » . .

ممن كانت له عينان فليبصر . . ومن عطل عينيه فلينتظر .

١١- ختام السورة :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ كل ما غاب عنك أيها الإنسان من أسرار في السموات والأرض . . بل وفي نفسك التي لا تستطيع أن تفهمها في كثير من الأحيان . . إنه لله وبيد الله وأمره . . ثم يعود كل شيء إليه في الآخرة وعندها يتأكد الإنسان أن مقاليد الأمور كلها بين يديه . فاغتنم الفرصة قبل أن تفوت :

﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ العبادة أولاً . . قم بما عليك من واجبات ثم توكل على الله فذاك هو التوكل الحقيقي .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٢-٤٣] .

وهكذا ينتهي هذا التعقيب الثقيل على الجولة التاريخية التي مثلت لب السورة وأطول جزء فيها . ويختم الحديث كله بعبارة جوهرية قادت إليها كل آيات السورة ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وهكذا تنتهي رحلتنا مع سورة هود والقلب في هلع يرتجف تحت وقع قول الله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ . . فأحوال الأمة لا تبشر بخير . . والوجوه والأبصار تتقلب هنا وهناك وهي تبحث عن (أولوا بقية) ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . .

يااللأسى . . كيف يعرض الإنسان عما حصل للسابقين ؟!

وكيف يعجز عن تأويل ما يعاني في حاضره من مصائب وآلام . . ؟! ألا يكفي ما عانينا حتى الآن من جراء جهلنا بسنن الله وتفريطنا في التدبر وفي السعي لأداء الواجب ؟!

إن الكلمات الثلاث التي يكررها القرآن أكثر من غيرها هي : الله بالدرجة الأولى ثم العلم والمعرفة ـ ومشتقاتها ـ بالدرجة الثانية . ثم العدل ومشتقاته بالدرجة الثالثة . .[1] فيالها من أسس هامة في بناء الفرد والأمة ولقد رأينا في هذه السورة كيف كان الأنبياء يحاولون بناء شخصية الإنسان وكيان الأمة على قواعد راسخة لا تزلزلها الأحداث . . لقد كان نداء الأنبياء باستمرار : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ و ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ﴾ لأن التوحيد هو القاعدة المكينة التي تحرر النفس من الاستكبار والاستضعاف . . وتحررها من الخرافات والجمود على الآباء . . وتحررها من الهوى والضياع . . فلما ضيعنا هذه القاعدة انهار الإنسان وتهدم كيان الأمة ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل : ٢٦] .

---

(١) راجع صفحة ٢٤٧ من كتاب (من أجل أخلاق أفضل) أبحاث منتدى الفكر والثقافة دار فصلت للدراسات والترجمة والنشر .

لأن قواعد البناء كانت هشة لا تثبت أمام صعوبات الحياة .

وعندما انتبه جورباتشوف إلى قرب الانهيار في بلده فنادى بإعادة بناء الإنسان (البير وسترويكا) ـ وإن لم يحدد القواعد الضرورية كلها للبناء ـ أعرض عنه قومه واستخفوا بكلامه . فانهار عليهم السقف ومازال ينهار. كما انهارت النازية من قبل في ألمانيا لأن قواعد العنصرية منخورة متعفنة .

ولكن العالم الإسلامي لم ينتبه حتى الآن كما ينبغي إلى أهمية بناء الإنسان. .

ولهذا ينفق الجهد والمال على التسلح والقتل أكثر مما ينفق على تربية الإنسان . فكيف ستأتي العواقب ؟!

إنني على يقين من قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] . ولعل في الأفق بصيصاً منبعثاً من أجنَّة من الرواد المجددين يتعهدها الله بالرعاية حتى تنمو وتنضج وتستكمل إشعاعها. .

فإن من سنة الله في الحياة الإنسانية أن يذهب الزبد ويزداد النمو فيما ينفع الناس . والله غالب على أمره. . لأن أمره هو الخير للناس الذي بدأوا يدركونه ويقتربون منه . ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

* * *

الفهرس

٣ـ تعقيب وختام

* * *

جدول الخطأ والصواب

رقم الصفحة	السطر من الأعلى	الخطأ	الصواب
٩	١٥	مجلات	مجالات
١٠	١٦	ويأتي بعده تعقيب . . . يحذف إلى آخر السطر لأنه مكرر.	
١٠	١٩	التهيء	التهيؤ
٢٩	١	وق	وقد
٣٠	٧	انفاعلاته	انفعالاته
٣٢	٦	اندافاع	اندفاع
٣٢	١٤	الصلح	الصالح
٣٢	١٧	صبراً	صبر
٣٢	١٨	صبراً	صبر
٤٢	١٧	الشهادة	شهادة
٤٥	١	أمورهمو	أمورهم و
٦٠	١٠	وفي	وفيه
٦٠	١٢	ورد	ورود
٦٦	٥	أحيناً	أحياناً
٦٦	٢١	السابقتين وهنا	السابقين وهذا
٧١	١	تجلى	تتجلى
٧٨	١٦	فس	في
٩٣	١٢	علد	عند
٩٤	١٧	موضع	موضوع
١٠٠	١٩	تجوز	يجوز
١٠١	١١	يجزء	بجزء
١١٤	٢	أقس	أقسى
١١٧	٥	إرادكتم	إرادتكم
١٢٣	١	لليبين	ليبين
١٣٢	١٧	(ولا يزالون مختلفين» وهي سنة الله في الحياة وفي الخلق) مكرر يحذف	
١٣٣	١١	عنده	عندها
١٣٥	٧	ممن	فمن
١٣٩	١٢	٨ـ تقضيلهم	٨ـ تفضيلهم

